كتابك

١٥٠ م

محمّد الطويل

موسيقار من سنباط



دار المعارف



هـذا الكتـاب

يصدر هذا الكتاب بمناسبة مرور ثمانين عامًا على ميلاد الفنان رياض السنباطى .

وهى رحلة وجدانية عقلية يطوف بها الكاتب مع الفنان السنباطى فى الفن والذكريات والآراء والمستقبل ، تضيف الكثير عن شخصيته إلى القارئ العربى . .

١٠ جـ



كتابك ١٥٠ م

رئيس التحرير أنيس منصور

محمد الطويل

موسيقار من سنباط

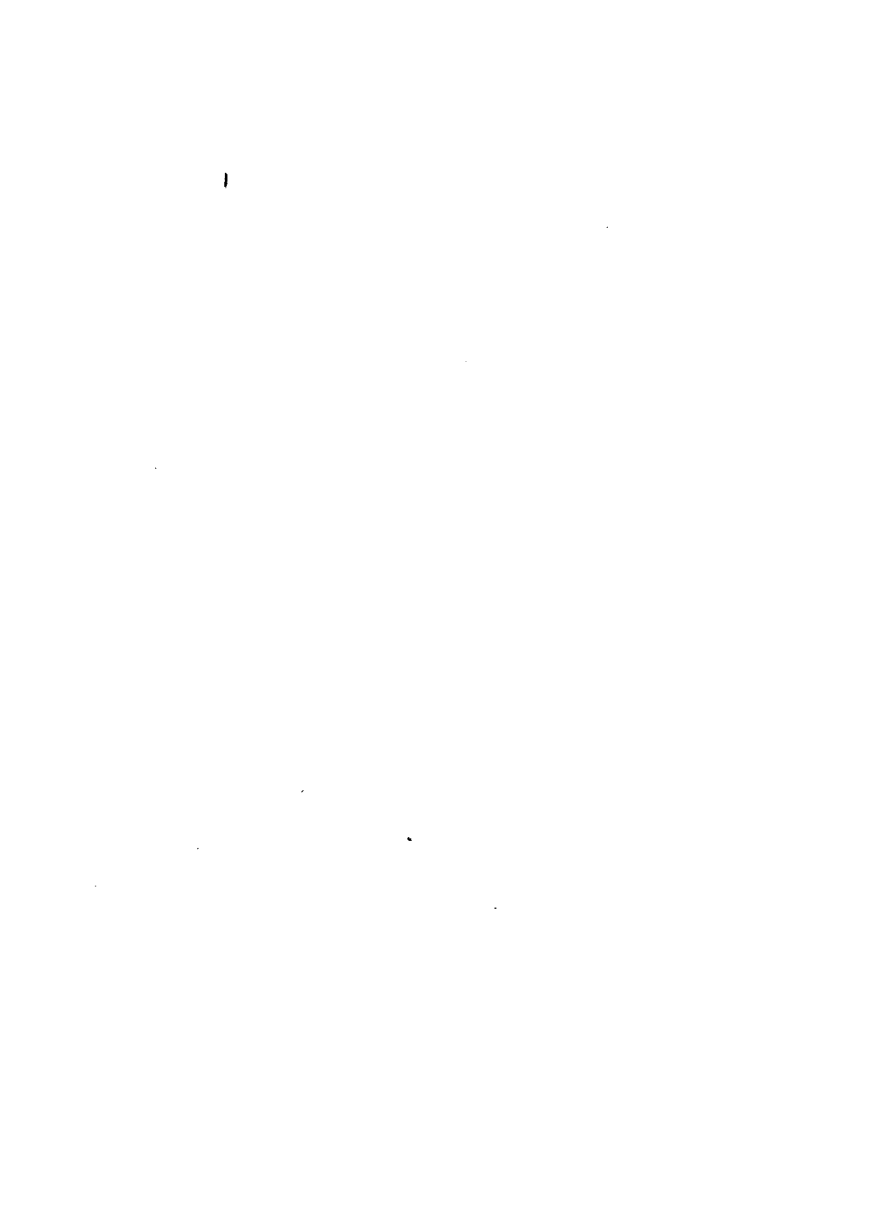


دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .



الموسيقار رياض السنباطي



الموسيقار . . القروى

مازال عندى أمل لأعمل أحسن مما عملت . . إذا كان لى عمر . أمل كبير فى تلحين أجمل وأمتع وأخلد مما لحنت . . ومع ذلك فلو مت فأتمنى أن يقول الناس عنى : إننى كنت مستقيمًا ، وخدمت فنى فى بلدى العزيز ، وقمت برسالتى على خير وجه .

هذا ما كان يردده رياض السنباطى دائمًا . . فى شهوره الأخيرة .

وقد مات فى هدوء . . كما كان يفضل الحياة الهادئة . . مات جسده وإن كانت روحه هائمة فى موسيقاه وألحانه التى تنسال بين ضلوعنا وتغذت بها مشاعرنا وأحاسيسنا . . وتمتعنا بأعذب وأمتع عاطفة إنسانية . . وهى الحب .

وإلى هذا الحد - وبرغم تجاوزه السبعين من عمره ، فإنه كان يتمنى أن يتمكن من تقديم أفضل مما قدَّم من موسيقى . . مع أن ما قدمه يعتبر أفضل وأجمل مافى الموسيقى العربية على مدى نصف قرن مضى ، وربما لقرون قادمة أيضًا .

هذا ويتمنى الذكرى العطرة دائمًا بين الناس . . وهذه أقصى طموحاته فى دنيا تغنى بها طال زمانها .

وكان الإعلام هادئًا أيضًا . . فلم يشعرنا بحجم ما أحدثه موته . . وكأنه يحترم رغبته فى الهدوء دائمًا . . فى حياته ومماته . . ! !

وقد كان هدوءه وانطواؤه وعزلته الاجتماعية مثار أقاويل وفضول وأحاديث متعددة . . وبرغم ما اتهم به من جراء هذه العزلة الذاتية فإنه لم يهتم بهذا . .

وإن كان فى سنواته الأخيرة قد ذكر بعض مبرراتها . . فهى طبيعية . . وكانت كذلك . بل لقد وصل الأمر لاستفزاز السنباطى من هدوئه . . أن إحدى الصحف – وهى مجلة الإذاعة – كتبت على لسان أحد كتابها فى سبتمبر عام ١٩٦٢ مقالاً لاذعًا انتقدت فيه عزلته وانطواءه حيث جاء بها : « أن رياض السنباطى فنان كبير له لون وطعم ورائحة . . ولكنه يسجن نفسه داخل سجن كبير يحبس عنه النور والشمس والهواء . . والسجن اسمه رياض السنباطى » .

وفى خيالى أنه لو استطاع السنباطى أن يحطم قضبان هذا السجن الكبير الذى يعتقل فيه نفسه بنفسه لرأينا منه أعمالاً كثيرة رائعة . . أروع بكثير من كل الذى رأيناه منه حتى الآن .

وإن كان محمد عبدالوهاب مثلا يخاف من المرض فإنه لا يخاف من الناس ، ولكنه يحبهم ، ويجعل من بيته الكبير ناديًا يجتمع فيه كل ليلة بهم ، ويخرج من وجوههم ومن كلماتهم مرة بحرف موسيقى ، ومرة بجملة موسيقية ، بل أحيانًا يخرج عبد الوهاب من هذه الوجوه – وجوه ضيوفه

وأحبائه وأصدقائه – بعمل موسيقى كامل ! !

ولكن السنباطى ليس كعبد الوهاب . . فالسنباطى لا يخشى المَرض بقدر ما يخشى الناس . . ولا يهرب من المرض بقدر ما يهرب من الناس ، وفى التجربتين – تجربة عبد الوهاب وتجربة السنباطى – دليل قاطع على أن هروب الفنان من الناس أخطر عليه ألف مرة من هروبه من المرض . . فالفنان يستطيع أن يعيش بلا بيت – بلا ناس . . ولا يستطيع أن يصنع من نفسه سجنًا يحبس فيه نفسه . . ثم يتوقع من نفسه بعد ذلك الاستمرار فى الإنتاج على المستوى الذى يليق بفنه . . وبالمكانة التى يصبو إليها ذلك الفنان .

وهنا ينتهى كلام هذا الكاتب ؟ ! وهنا أيضًا . . يمكن القول : بأنه إذا كانت من أسباب عظمة عبدالوهاب اختلاطه واندماجه بالناس ، فانعدام هذا السبب ذاته من أسباب عظمة السنباطى .

وإذا كان التوقع بأنه لو خرج للناس لأخرج لهم روائع أكثر مما يقدمه فإن الأعوام العشرين التى قالت ذلك الكلام تؤكد عدم صحته . . فطبيعته الانطوائية قدمت أروع مما قدم قبل هذه الأعوام العشرين الماضية .

وإذا كان اعتقاد الكاتب أن هروب الفنان من الناس أخطر عليه من المرض ، فالتجربة أثبتت أن مرض السنباطى بالربو كان أخطر من هروبه من الناس ، الذين أصبحوا وباتوا خطرًا واقعًا فى حياة عبدالوهاب . بل

أشد من المرض خطرًا فى هذا ، فأين روائع عبدالوهاب الموسيقية من اختلاطه بالناس فى هذه السنوات العشرين الماضية أيضًا ؟

ويؤكد إيمان السنباطى بخطر الناس أكثر من خطر المرض أنه صرح قائلا ذات مرة : « الحقيقة التى أحب أن أخفيها أننى لا أحب المجتمع ، ولا آمن له . . فأنا لا أحبه خوفًا من عواقب الاندماج فيه ، حتى ولو قلت إن المجتمع يحبنى . . فأنا لا أحب الإقدام على شىء أندم عليه بعد عمله » .

وإذا كان هذا الكاتب قد تصور أن السنباطى يحبس نفسه فى سجن كبير اسمه رياض السنباطى . . فالمعنى هنا مخالف للمقصود من هذا التشبيه . . وذلك لأن أعماق الفنان – بطبيعتها – عميقة ولا نهائية ، وغير محدودة الزمان والمكان . . فهو دائمًا حرٌّ وطليق داخل نفسه وأعماقه ، ومن ثمَّ فالفنان عندما ينطوى عن الناس فهو رحلة طويلة أو قصيرة بنفسه العميقة يأتى إلينا بعدها بفنه المبدع .

وإن كنا قد تصورنا أنه كان سجينًا فإنه كان حرًّا وهو يبعد عنا . . مقيدًا إذا اقترب منا . وكان يهمس لنفسه عما كان يردد من حوله . . فيقول الهدوء . . الهدوء . . الهدوء الشامل لتتحدث روحى إلى عالم الأرواح التى توحى لى باللحن وتعمق فيه . . فالهدوء صلة بينى وبين الخالق . . بل إن الحقيقة أننى أجد فى العزلة نوعًا من العبادة التى تمكننى من الاستغراق فى عملى الفنى . . فهذا تصوف فنى كالتصوف الدينى .

وإن كان الأول تَعبَّد الله بالموسيقى ، ويؤكد كلامى من هذا أننى لحنت نهج البردة فى خلال ثلاث ساعات فقط . حتى إن أم كلثوم اندهشت من ذلك وطلبت سماع اللحن . . وما إن سمعتْ مطلع الأغنية حتى بكت وسالت دموعها غزيرة . . فسألتها عن سبب ذلك فقالت : إنها هزتنى من أعماقى .

ويعلق السنباطى على ما حدث قائلاً : « أعترف أننى لم أعرف كيف لحنت نهج البرّدة . وإنما – والله على ما أقول شهيد – كنت أستمع إلى صوت أو هاتف فى داخلى وأنا أردد وراءه على عودى ما أسمع . . فأنا لم ألحنها وإنما كانت نغمتها كما سمعت الصوت السماوى بداخلى » .

وعن انطوائه يقول أيضًا : « فى اعتقادى أن عزلتى كسب ، حيث أقضيها مع نفسى فى الخلق والابتكار وقراءة الشعر القديم والحديث . فأنا لست فى عزلة ، فإننى مع نفسى ، ومع كتاب أو خاطر أو لحن . . فإننى خُلقت هكذا . . أجد متعة روحية كبيرة فى ابتعادى عن المجتمع لما قد ينالنى منه إذا اندمجت فيه ، فأجمل أوقاتى أقضيها أيضًا بمنزلى ، أستمع إلى ما تهواه مسامعى وتستريح إليه من الموسيقى لكبار فنانى الغرب والشرق . كبيتهوفن ، وتشايكوفسكى ، ورسيكيو مروسالوف . وهايدن ، وشومان الموسيقار الإيطالى ، ومسيجى ، وخصوصًا سيمفونيته الرائعة شجر الصنوبر التى أهوى سماعها دائمًا لما فيها من أصالة وعمق ، ولما لها من تأثير قوى فى نفسى ، بحيث إننى كلما سمعتها وجدت

فيها أفكارًا وآفاقًا جديدة . فقد اعتدت سماع الموسيقى لمدة ساعة يوميًّا ، فيما عدا الأيام التى أكون مشغولا فيها بالتلحين » .

وتبعًا لطبيعة هذه الانطوائية . . فقد اصطبغت حياته الخاصة بذات الطابع ، فعائلته تتسم بالتحفظ فى علاقاتها الاجتماعية ، ولا تميل للاجتماعيات المسرفة – كبعض عائلات بعض كبار الفنانين – وقد تمكن من خلال ذلك تنشئة أولاده بوسائل مثمرة ، وحفظها من نظرة سوء أو سلوك سيئ ربما يمسها من هنا أو هناك ، وخاصة أن مجتمع الوسط الفنى يعج يوميًّا بما لا يسر النفس والفن دائمًا .

وبرغم ما سبق ذكره . . فليس هناك ما يدعو للدهشة أو التساؤل عن هدوئه وانطوائه ، لأنه ليس الفنان الوحيد – سواء على المستوى القومى او العالمى – الذى تتسم طبيعته بالعزلة والانطواء . . بل إنه أيضًا يتسم بمجموعة من الصفات المتفرقة بين بعض الفنانين العالميين. ففيه من الموسيقار المجرى فرانز ليست الطول الفارع ، والشعر المسدل ، والاعتزاز بالنفس ، وعاطفية المشاعر ، وتناقض الأحاسيس ، والمحبة العنيفة ، والأبوة الرحيمة . وفيه من تشايكوفسكى الموسيقار الروسى إرهاف الحس ، وحِدَّة الطبع ، وتقلّب المزاج . . ومن الموسيقار النمساوى شوبرت الانعزالية وشرود الفكر ، وكثيرًا ما يحتويه الخجل ليبعده عن الأضواء ، فيحيل همسه ومناجاته لذاته الصامتة إلى أخلد ما كتب من نغم . .

وهو يشبه ثلاثتهم – بما تجمَّع لديه بهذه المكونات – فى الرومانتيكية ، فقد كان هؤلاء الفنانون الذين ابتدعوا موسيقاهم الرومانتيكية فى أواخر القرن الثامن عشر ، والتى ساد معظمها القرن التاسع عشر . حيث كان هذا المذهب الرومانتيكى يعد فاتحة لعهد جديد فى التفكير الأدبى والفنى بأوربا ، وكان يطلق على هذه الفترة بالغرب ، بالعصر الرومانتيكى الذى تميز بالعنف فى المشاعر والتعبير عنها ، وعدم الاستقرار ، والتغنى بالطبيعة والحب ، والتهويل فى الوصف ، والتعمق فى وادى الأحلام ، والاستغراق فى الخيال ، وأحياناً فى التشاؤم والتغنى بالموت .

وإذا كانت هذه الفترة قد تقدمتنا زمنيًّا فهذا ليس بإرادتنا . . وهذا ما يفسر تأخر ظاهرة السنباطى الموسيقية الرومانتيكية فى أوائل هذا القرن . . وليس هذا تأخُّرًا منا بقدر ما كان يحيط بنا من ظروف كانت السبب فى ذلك .

ومن خلال ما تقدم يتبين لنا شىء مهم . . وهو أن السنباطى كان يعلم جيدًا أن للمجتمع حقًّا عليه . . ألا وهو الأنغام والموسيقى ، ولذلك فلن نقتحم حياته ومملكة انطوائه ، كما كان يتمنى ويصر على ذلك دائمًا ، بل سنقترب فقط من أجندة ألحانه . . لنستطلع كيف كانت وكيف أتت ؟

وهذا الاقتراب سيكون كما قال فيتوبا ندولنى مؤلف وأستاذ المسرح

العالمى : بأن قصة الإنسان الحقيقية هى تاريخه مع العمل . . وعمل السنباطى هو الفن فقط .

وهأنذا أتجول فى دروب فنه بقدر ما كان يسمح بذلك . . احترامًا لما أراد دائمًا وتقديرًا لروحه الهائمة بموسيقاه التى مازالت تعيش فى وجداننا .

وتسألنى أيهما قدّم للفن أكثر : الموهوبون أم المتعلمون ؟ أقول لك إن تَعَلُّم الموسيقى لا يخلق الموهبة . أما فى مدرسة الموهبة فيمكن أن تتعلم الموهبة وتدرس . . فأم كلثوم لم تذهب إلى الكونسرفتوار ، وعبد الوهاب لم يعرف هذا الطريق . . ومع هذا فنحن نعيش عصر أم كلثوم وعصر عبد الوهاب . أليس كذلك ؟ !

كان هذا رد السنباطى على كيف يكون الفنان ؟ . لأنه كان موهوبًا أكثر منه دارسًا ، وبذلك فهو يؤمن بالموهبة كبداية ، ثم يأتى التحصيل والدرس .

التلميذ . . أستاذ !

ومع هذا . . فقد بدت موهبته فى سن الثامنة من عمره عندما بدأ يشعر باستعداده الفطرى نحو الموسيقى ، وخاصة شغفه بالعزف على العود ، حيث كان يهرب من المدرسة إلى دكان نجّار يهوى العزف على العود - وهو الأسطى حسن صاحبه الذى تلقى عنه دروسه الأولى فى الفن - حيث كان يفعل ذلك دون أن يدرى والده . . الذى تبناه فيما بعد ، عندما علم بهوايته للموسيقى والغناء .

كما أنه كان كثيرًا ما يتأمل والده - المطرب الشعبى محمد السنباطى - وهو يعزف على العود ، وينغم بعض النغمات الخاصة بالأغانى التى كان يُطرِبُ بها جمهوره الريفى حين ذاك فى « سنباط » - حيث وُلد رياضُ السنباطى ، وكان والده يغنى فى الأفراح فى فارسكور ، ويتغنى بالأدوار القديمة والقصائد ، ويقلد عبد الحى حلمى والصفتى حتى أصبح مشهورًا . . فضاقت فارسكور بطموحه فانتقل إلى المنصورة نهائيًّا وحظى بلقب بلبل المنصورة .

ولكن الأب فوجئ بمرض فى عينى ابنه رياض فتفرغ لذلك وذهب به للطبيب الذى أشار عليه بضرورة تواجد ابنه بالريف . وذلك لإصابته

بحساسية بعينيه يمكن شفاؤه منها فى جو ريفى نقى يتأمل الخضرة والحقول ، وينظر فى أفق أزرق وسماء صافية .

ويذهب الأب مع ولده للريف . . حيث أتيحت له - مصادفة - أن يسمع ابنه يدندن بأغنية نام الحمام والقمر على الغصون . وكانت هذه أول أغنية يرددها رياض السنباطى أيضًا فى الحفلات كمطرب مع والده . والذى سأله عندما سمع دندنته متى بدأت الغناء يارياض ؟ ! !

فرد الصغير بذكاء : منذ عرفت معنى ما تغنيه يا أبى . ! !

فربت الأب بحنان على كتفيه وتنهيدة تصعد مع كلماته لابنه قائلا :

إذن سوف نسرح معًا . . وسنغنى معًا يابنى . . . ! !

وبدأ السنباطى الصغير يصاحب والده فى الأفراح والموالد . . وهنا يعقب - رياض السنباطى قائلا : لقد تأثرت بأبى الذى كان أول من علّمنى العود بأسلوب سليم ، حيث كان عوّادًا مشهورًا ، كما علمنى عشرات الأدوار القديمة التى اعتبرتها كنزًا حفظته فى أعماقى . . .

ثم بدأ يغنى مع والده بعض أغانى داود حسنى منها « أنا عاشق من زمان » . وقد شهدت المنصورة فى ذلك الوقت فرقة موسيقية يتوسطها صبى صغير ، و هذا الصبى هو رياض السنباطى ، الذى راح يطوف فى القرى لإحياء الأفراح والليالى الملاح . . وكان لذلك يركب المراكب الشراعية فى نيل المنصورة ، إلى جزيرة هناك ، حيث كانت تغريه بما فيها

من خيار وبطيخ . وفى الذهاب والإياب كان يردد الأغانى وراء أبيه . . . !

وكان الموسيقار – خالد الذكر – الشيخ سيد درويش من أصدقاء والده ، يتردد من حين لآخر عليه فى المنصورة . وكلما استمع إلى صوت رياض وهو يغنى يُرَدِّدُ على مسامع والده أن يترك « رياض » يصاحبه للإسكندرية فيرد عليه الأب قائلا :

كيف أتركَ « رياض » معك يذهب للإسكندرية وهو ساعدى الأيمن ! !

وكان كلما قام سيد درويش بزيارة السنباطى الكبير بالمنصورة يصطحب « رياض » معه فى تجواله بالمدينة ، يداعبه ويناقشه فى الطرب والموسيقى والأمانى والآمال ، ويأخذه إلى محل راندوبولو – وهو حلوانى مشهور فى المنصورة حين ذاك – ليطلب له البقلاوة . ومازال يرد على مسمعه دائمًا عندما يتحدث لوالده : يجب ألا يبقى رياض فى المنصورة يامحمد . . فهو موهوب ومكانه بالقاهرة . . !

وكان ما يردده سيد درويش . . هى أمنية عزيزة لرياض السنباطى يحلم بها وتكبر معه . . وتؤرقه وتتوهج رغبة ملحة مع شمس كل يوم جديد فى حياته ! ! !

ولم يقتصر اقتراب رياض من سيد درويش على الرد والإعجاب ، أو التأثر وحفظ موسيقاه وأسلوبه فحسب . . وإنما كان رياض يتأمل

حياة هذا الفنان . . ماذا تكون وكيف تسير؟ ! !

فقد ذهب – ذات مرة مع والده لزيارة سيد درويش بالإسكندرية ، حيث كان مقررًا أن يحيي سيد درويش حفلة هناك على أحد مسارحها . . وانتظر معه بالكواليس حتى يكتمل عدد الجمهور بقاعة المسرح . . واستغرق الانتظار ساعة بعد ميعاد الافتتاح الرسمى ولم يحضر للقاعة غير ثلاثة من الجمهور . . ! فحزن سيد درويش حزنًا شديدًا ، وأمر بحصول كل منهم على قيمة تذكرته التى كانت تساوى فى ذلك الحين عشرة قروش . . وخرج من المسرح منكسر النفس يصاحبه السنباطى وابنه رياض ، حيث ذهب ثلاثتهم إلى حانة . . وأخذ سيد درويش يحتسى الخمر بإسراف باكيًا ما حدث فى هذه الليلة . . والسنباطى الكبير يواسى شجونه . . ورياض الصغير يتأمل ويتساءل عمّا يدور حوله لهذا الفنان وما سيكون . . وما يجب أن يكون عليه . . إلى أن نام من كثرة التفكير متعبًا . . ! ؟

وفى هذا يقول رياض السنباطى : إن الحياة البوهيمية للفنان هى الطريق المختصر لانتهائه .

وفى هذه الأثناء – أى عندما كان الصبى رياض ضمن فرقة سيد درويش الموسيقية – إذا به ذات ليلة يتوقف على محطة « ديرينم » بالغربية ، عائدًا من فرح ، وإذا به يرى صبية أخرى وسط بطانتها الموسيقية كانت قادمة لإحياء مولد . . وكان الشتاء فى هذه الليلة قارسًا .

وكلٌّ منهما يرتدى « بالطو » من الصوف الثقيل . . واقترب والده من والدها ، وتصافح الزجلان ، حيث كانا صديقين من على بعد — كما يقول المثل . . وعندئذ أشار السنباطى الكبير لابنه رياض قائلا : رياض . . هذه أم كلثوم التى تسمع عنها الآن ، وشهرتها الكبيرة . . فتقدم رياض إليها مصافحًا فصافحته . . واستقل كلاهما القطار ، وأخذا يتحدثان بعد أن تجاورا على مقعد واحد ، حتى افترقا فى المنصورة . . وأكملت هى رحلتها إلى « طماى » وكان هذا أول لقاء بين أم كلثوم ورياض السنباطى . . . !

وكانت الرغبة فى التعلُّم والاستزادة من الموسيقى تشتد لدى رياض السنباطى ، فقد تبناه محمد شعبان مدرس الموسيقى بالمنصورة لهذا الشغف ، وكان رياض يقبل عليه بنهم واستعداد شهى للموسيقى والعزف ، وحفظ الأدوار والموشحات . بالإضافة إلى ما كان يتعلمه من والده .

وفى سنّ العشرين . . قرر رياض أن يحقق أمنيته الغالية . . الرحيل للقاهرة . . فقد كانت رغبته فى هذا تتوهج يومًا بعد يوم . . وما كان يردده سيد درويش على مسمعه وهو صبى . . وما كان يسمعه عن الفنانين الكبار . . والفرص المنتظرة لطموحه ومستقبله . . وعالم الموسيقى الكبير الذى يريد أن يجوبه ويصول فيه ليحقق ذاته ويؤكد موهبته . . ومن أجل هذا التقى بوالده ، وفاتحه برغبته فى الرحيل للقاهرة لبدء

الخطوة الأولى فى مستقبله . . فاندهش والده وفزع من رغبة ابنه ، فرد عليه الأب بحنان قائلا : إن القاهرة تعج بالعمالقة وكبار الفنانين فأين ستكون من هؤلاء يابنى . ؟ !

فرد عليه الشاب بثقة وعزم : إننى قررت الرحيل مهما تكن العقبات والأسباب . وكان له ما أراد . وحزم أمتعته البسيطة ورحل للقاهرة فى غضون ساعات .

وفى القاهرة . . كان رياض منطقيًّا مع نفسه .. فكانت بدايته سليمة . . حيث اتجه إلى معهد الموسيقى العربية ليتزود بالدراسة ، وليبدأ الطريق حيث يجب أن تبدأ بدايات طرق الطموح . . فتقدم لامتحان الأصوات بالمعهد ، حيث استمعت إليه لجنة ثلاثية مكونة من مصطفى رضا مدير المعهد . وحسن أنور أستاذ الموشحات . وحافظ بحيرى . فاستمعت إلى صوته وطربه . . ثم أبدت استعدادها لسماع عزفه على العود . فعزف السنباطى . . ثم تهامست اللجنة دقائق ، كان السنباطى فيها قلقًا مضطربًا يترقب حكم اللجنة . . ثم رفع أعضاء اللجنة رءوسهم للسنباطى الشاب . . ونطق مصطفى رضا حكمها بتأنٍ قائلا : نحن قبلناك بالمعهد .

فنهض الشاب من على مقعده فَرِحًا . . يردد كلمة الشكر لله . . غير أن مصطفى رضا عاد واستدرك حديثه له قائلا : ولكننا لن نقبلك تلميذًا فوجم الشاب لحظة تهدج فى أثنائها صوته وتساءل قائلا : إذن ماذا ؟

فرد عليه مصطفى رضا بابتسامة عريضة : سوف نعينك مدرسًاللعود . . كما قررنا لك مكافأة ثلاثين جنيهًا .

وتم تعيينه براتب قدره أربعة جنيهات شهريًّا . . كما صرف المكافأة التى قررت له على مدى ستة أشهر .

ولم ينسَ السنباطى أنه أتى للمعهد تلميذًا . . يطلب الاستزادة والدراسة من منبع الموسيقى العربية . . فاختار أيضًا بجانب أستاذيته دراسة الموشحات على يد أستاذها حسن أنور .

وسارت أيامه كأستاذ وتلميذ فى آنٍ واحد على ما يرام . . حتى طلب من حسن أنور أن يُسْمِعَه موشحًا . . فاندهش رئيس القسم لذلك الطلب ، وكانت دهشته دلالة تساؤل : أَمِنَ المعقول أن يعرف هذا التلميذ موشحًا لم يسمعه حسن أنور من قبل ؟

ومع ذلك قال له : تفضل غَنِّ الموشح .

فغنى السنباطى قائلا : ياقاتلى مابت فيك مفتونًا طول الزمان .

فاندهش الرجل قائلا له بحنان وفرحة : أنا يابُنَىَّ لم أسمع هذا الموشح من قبل . ولم يكن الأستاذ متعاليًا أو مكابرًا . . فاستمع إليه مرة أخرى . . حتى تأكد له أن السنباطى يحفظ عددًا من الموشحات يزيد على العدد المقرر فى المنهج الدراسى بالمعهد . . ثم أخطر إدارة المعهد بذلك . . الذى عينته أيضا أستاذًا لفرقة الموشحات بالمعهد . . وكان ذلك بعد شهرين فقط من التحاقه به ، ويعلّق رياض السنباطى على

هذا الموقف قائلا : « لقد سَعِدَ أستاذى بكفاءتى وتفوقى ، ولم يحقد لذلك ، لأنه أستاذ معلم . . والأستاذ زمان حاجة مقدسة لا يحقد على تلميذ . . إنما كان يدفعه أمامه دائمًا . . يزهو به ويفخر أنه تلميذه حتى ولو تفوق عليه » .

وبعد لحظات من الصمت يستدرك السنباطى تعليقه قائلا : « بعد الدراسة أدركت وتأكدت عظمة سيد درويش . . فهو الذى نقل الموسيقى من دائرتها المحدودة إلى دوائر الأنغام الفسيحة . وهو الذى تبحر فى خلق المعانى اللحنية الحلوة وأبدع تصويرها بخيال الفنان المتمكن الأصيل . . لقد كان تاريخه يشهد له بما آتاه من ألحان خالدة للآن » .

السنباطى . . والمدينة

والبداية . . غالبا شاقَّة . . وكانت بدايته الفنية جادة . . فيقاسى ما يقاسيه أى شاب طموح يتطلع لتحقيق مستقبله وذاته . . فأعماقه تفور بالأنغام ، ونبضاته تدق بالألحان . . ليس من فراغ . . وإنما بما يشعر به . . وبرغم معاناته الأولى – مادية كانت أم معنوية – فإنه استطاع بصبر ومثابرة أن يثبت وجوده خلال الخطوة الأولى لطريقه الفنى الطويل .

فقد لحن أول أغنية دينية له بالقاهرة للأستاذ أحمد عبد القادر ، حيث كانت الأغانى الدينية حين ذاك تلقى إقبالاً شديدًا . اسمها « امتى تعود لك يابنى » .

ثم التقى بالشاعر على محمود طه الذى قام بإعطائه مجموعة من شعره ينتقى منها مايراه مناسبًا للتلحين . . فانتقى إحداها ولحنها وقدمها لشركة أوديون للأسطوانات ، حيث غناها أيضًا أيام مديرها . وهى تعتبر أول أغنية مسجلة بصوته . اسمها « يامشرق البسمات أخى ظلام حياتى » . فأبدى مديرها إعجابه الشديد ، فتعاقد معه على أول عقد فنى فى حياته قيمته خمسون جنيها بواقع خمسة جنيهات لكل لحن .

ويعقب السنباطى على هذا قائلا : «كان لابد من البداية أيًّا كانت القيمة المادية للعمل والمجهود . . إنما المهم قيمة العطاء فنيًّا .. فالفرصة الأولى دائمًا هامة وضرورية دون التطلع من ورائها لتحقيق أى مطمع مادى . . ومع ذلك فقد كانت الخمسون جنيهًا مبلغًا كبيرًا فى ذلك الوقت » . ثم طلب منه المسئولو ن بشركة أوديون تلحين بعض الأغانى الخفيفة لعدد كبير من المطربين والمطربات . أولهم أحمد عبد القادر . وعبد الغنى السيد ، والسيدة نجاة على ، ونادرة . وغيرهم .

وانتشرت ألحانه مما شجعه على الاستمرار بحماس حتى وصلت شهرته إلى السيدة منيرة المهدية ، سلطانة الطرب فى ذلك الوقت . . فالتقت به ، وكلفته بتلحين أوبريت « عروس الشرق » تأليف يونس القاضى . . كانت قد تركت المسرح – فى ذلك الوقت – وافتتحت صالة فى شارع الألفى . حيث كانت تقدم وَصلة أو وصلتين من الغناء .

ولاقى الأوبريت الذى لحنه لها نجاحًا كبيرًا شجعها على أن تعهد إليه أيضًا بتلحين أوبريت آخر وهو من تأليف الشاعر الكبير أحمد رامى .

وعندئذ . . بدأ نجمه يتألق شيئًا فشيئًا . . فقد لحن لسلطانة الطرب فى زمانها . وبالطبع كان لابد أن تلفت ألحانه لها الأنظار حول هذا الفنان الصاعد . ومع ذلك فيبدو أن البعض قد أدهشه ذلك . . حيث كان هناك فى ذلك الحين عمالقة للموسيقى . منهم محمد القصبجى . وزكريا أحمد ، ومحمد عبد الوهاب ، وأم كلثوم . وكامل الخلعى .

فكتب المرحوم الأستاذ مصطفى القشاشى – فى ذلك الحين أيضًا – فى جريدة الصباح كلمة تهكّم عليه ، حيث وصفه بأنه القروى الذى جاء وصارع العمالقة .

وقد تألم السنباطى فور قراءته لهذا التهكم المر . . وأحس بالظلم والغبن . . فلماذا يتهكمون عليه ويسخرون منه وهو فى بداية الطريق . . فإنه لم يحلم بأن يقف ندًّا لأى قمة فنية موجودة حين ذاك بقدر ما كان يحلم بأنه يحاول تحقيق ذاته ومستقبله ، فكتم حزنه بداخله واتجه به إلى مصطفى رضا ، مدير معهد الموسيقى العربية ، يشكو له هذا التهكم الصحفى . . فرد عليه الرجل بحنان الأستاذية وبثقة : احتفظ بهذه الصحف وادَّخرها حتى تتراكم لديك وسترى ما يخبئ لك المستقبل .

وكانت نظرة الرجل ثاقبة بعيدة المدى ، فقد أصبح رياض السنباطى منذ أكثر من نصف قرن ولأجيال قادمة علامة من حضارتنا الموسيقية والفنية عمومًا .

وعندما يتذكر رياض السنباطى هذا الموقف فى شتاء عام ١٩٧٨ . . فيزهو قائلا : « وإنه لمن دواعى الفخر الكبير والعزة والمجد أن أكون فلاحًا أو قرويًّا ، فقد أعطانى وسام شرف دون قصد منه . . فالريف المصرى دائمًا يقدم عبقريات لمصر . . ويبنى حضارتها على ضفاف النيل . فقد قدرنى دون أن يشعر وقد نالنى هذا الشرف » .

وقد استمر رياض السنباطى فى التلحين ولم يعتنِ بنفسه كمطرب ،

ويبرر ذلك قائلا : « إننى لا أريد بما أقدمه بصوتى - أحيانًا - من ألحان أن أكون مطربًا . . فبداخلى أحاسيس كامنة فى صدرى . . فأشعر أحيانًا أننى أريد أداءها للناس بنفسى . . صادقة ومعبرة عمّا يعتمل فى نفسى . . كما أن المطرب له مواصفات غير موجودة عندى . . وإن كنت أعطى نفسى درجة جيدة فى الغناء . . وللحقيقة أيضًا فإننى أخشى مواجهة الجمهور ، ولهذا أتوارى وراء الأغنية - أى بتلحينها فقط - وإذا كان لابد للغناء أحيانًا فإننى لابد أن أكون خلف ميكروفون فى أستديو مغلق » .

وكان السنباطى فى أثناء تألق نجمه يتابع سطوع قمة أم كلثوم وانتشار نجوميتها ، ويشعر بتطلع ملكة التلحين تهفو شوقًا لهذا الصوت العظيم . . وكانت أم كلثوم بطبيعتها أيضًا تتابع كل جديد فى الفن . . فتابعت هذا الفنان الصاعد ، فكانت تستمع لألحانه التى لحنها لبعض المطربين والمطربات ، وخاصة ما سمعته عن أوبريت منيرة المهدية . . ثم استمعت له ذات مرة إلى أغنية من الإذاعة من تلحينه مطلعها « ياريتك حبتنى زى ماحبيتك » .

ويبدو أن هذه الأغنية . . قد دفعت أم كلثوم فور سماعها لتقرر نهائيًا أن يلحن لها هذا الفنان ، فاتصلت به تليفونيًا ، فكان هذا اللقاء الفنى مهمًّا وحيويًّا للموسيقى والأغنية العربية على مدى سنين طويلة .

وكان هناك فى هذه الأثناء مؤتمر للموسيقى الشرقية بالقاهرة ، وقف

فيه الأب كولا بخيت يقول : « إن الترقية والتجديد لا يستلزمان حتمًا هدم القديم ، بل نحن نعد جُرْمًا كل مساس بهيكل الموسيقى العربية القديم . . ونريد لهذا الفن الجميل أن يبقى فنًّا عربيًّا حقًّا . وكان هذا الرجل مُحِقًّا فى قوله . . ففيم المتعة للمستمع لو نحت الموسيقى العربية للتقليد الغربى . . فاولأولى به أن يستمع للأصيل فى هذه الحالة . وهى الموسيقا العربية . . ولكنه أراد المتعة أيضًا من الموسيقى . حتى لو كانت غربية .

وعقب الاتصال التليفونى بين السنباطى وأم كلثوم اتجه لمنزلها بمر « بهلر » حيث كانت فيلتها لاتزال فى طور البناء . . والتقى بها بعد سبعة عشر عامًا من لقائهما الأول على محطة دريني بالغربية .

ويذكر السنباطى هذا اللقاء فيقول : «كان لقاء جميلا بعد مرور هذه السنوات الكثيرة التى كانت تفصل بين هذا اللقاء ولقائى الأول بها بمحطة دريني . وقدمت لى كلمات لتلحينها ، وكانت تغنى حين ذاك فى صالة سانتى بالأزبكية فكانت الأغنية الأولى من تأليف الشاعر أحمد رامى وتقول : (لما انت ناويه تهاجريني . . أمّال دموعك كانت ليه ، والأخرى أيضًا له وتقول : (ياطول عذابى واشتياقى ما بين بعادك والتلاقى) .

وقمت بتلحينهما . . ونجح هذان اللحنان . . واستمرت علاقتنا الفنية حيث كان أيضًا يلحن لها محمد القصبجى ، وزكريا أحمد » .

ثم لحن لها أول قصيدة شعرية لأمير الشعراء أحمد شوقى مطلعها « سلوا كئوس الطّلى هل لامسَتْ فاها » .. فلما أعجبها تلحينه للشعر واستهوى الجمهور ذلك .. كلفته بتلحين قصيدة تالية لأحمد رامى مطلعها « كيف مرت على هواك القلوب وتحيرت من يكون الحبيب » .

الفنان والحب والزواج :

وفى أثناء تألق نجومية رياض السنباطى كان يعيش قصة حب مع فتاة اسمها فاطمة . . وكان قد خطبها بشبكة قيمتها ألف جنيه . . وعقب ذلك كانت هناك عقبة لإتمام زواجه منها . . ألا وهى إصرار حماته على أن يستقر الزوجان فى منزلها ، وقد أيدت فاطمة أمها فى هذا . . وأبى رياض ذلك . . ورفض ذلك المنطق ، حيث إنه يطمع فى الاستقلال بحياته الخاصة مع زوجته فى منزل خاص ، واستمر الجدل بين الطرفين إلى أن فسخ السنباطى الخطبة من فاطمة . . وإن كانا قد استمرا فى اللقاء بمنزلها أيضًا .

وفى ذات الوقت كانت تتنازعه صراعات أخرى . . فى مواجهة زوجة أحد المليونيرات ، كانت تملك أراض وأملاكًا شاسعة فى سنغافورة . . وكان يتردد عليها بالقصر ليعطيها دروسًا خصوصية فى الموسيقى ، فعرضت عليه هذه المرأة الثرية أن تتزوجه – بعد طلاق زوجها – على أن تكون العصمة بيدها .

وعاش هذا الصراع بين هذه وتلك . . تموج بنفسه مشاعر وأحاسيس متناقضة عنيفة لا تسعده بقدر ما تشعره بشيء من التمزق فكلاهما مرفوض بحكم تكوينه وطبعه ورجولته .

وفى إحدى هذه الأمسيات الممزقة ، والتى كان يقضيها وحيدًا بمنزله بالزمالك وتلفه الوحدة والوحشة والأسى والحزن ، وبرفقة عوده الذى كان يحتضنه يبثه الشكوى والألم – كانت أمامه رباعيات الخيام ، التى كان قد ترجمّها من الفارسية للعربية أحمد رامى ، فأخذ يتصفحها ويعاود نظره بين سطورها . . فاستهوته ، حيث كانت أبياتها تتواءم أو تلتقِى مع مايشعر به ومايريد أن يعبر عنه . فأمسك بعوده وأخذ يدندن مُحاوِلاً – لقاء عمر الخيام فى مشاعره وأحاسيسه التى كتب بها هذه الرباعيات ، وكأنهما رفيقان فى طريق واحد من الألم والحزن . حتى توقف عند بيت يقول فيه عمر الخيام : أطفئ لظَى القلب بكأس الشراب . . فقرر على الفور أن يكون هذا أول بيت يلحنه فى هذه القصيدة . دون التفكير لمن يلحنها أو من سيؤديها ، أى يغنيها . إنما فقط التقى مع هذه الكلمات معنى وحياة ، حيث كان يبحث فى أعماقه عن الاستقرار وبر الأمان لعواطفه التائهة ، ولقلقه كفنان . . ويعلق السنباطى فيما بعد قائلا : « إن قصة هذا اللحن تذكرنى بحياتى القاسية . . حياتى التى عشتها خلوا من الحنان والحب والأطفال » .

وفى إحدى الحفلات العائلية التى دُعى إليها . . كان هناك قدره

ينتظره بدون أن يدرى مُسبقًا . . فقد انتصف الليل ، ورأى وجهًا جميلاً من بين وجوه المدعوين ، وكانت هذه الآنسة كوكب – زوجته فيما بعد – فانخلع قلبه – على حد تعبيره – وهمس لنفسه قائلا : هذه زوجتى . . وغنى فى أثنائها « ياريتك حبتنى زى ما حبيتك » فقد نادى عليها بهذه الأغنية.. ويبدو أن فتاة أحلامه أيضًا قد لبت النداء، فعندما انتهى الحفل أسرع ينزل درجات السلم بجوارها . . وبادرها بقوله لها : « أنا عايز أتزوجك » فأسرعت خطاها حياءً بعذريتها الخجول . . ثم تقدم فى اليوم التالى لأخيها ، وتم زواجه منها ، وكان فى ذلك الحين يصل دخله إلى خمسة وثلاثين جنيهًا فى الشهر .

وفى حفل زواجه ذهبت أم كلثوم وغنت مداعبة له « ياطول عذابى » فاندهش الناس وتساءلوا عن هذا ؟ فردت قائلة : « طبعاً ياطول عذابك الذى سوف تراه فى زواجك » . .

وهنا يرفع السنباطى رأسه للسماء قائلا بتأثر : « زوجتى . . هى كل شىء فى حياتى ، والتى أدين لله ولها بما أنا فيه ، فمعظم ألحانى صنعتها وأبدعتها وهى شريكة عمرى » .

وسألته ذات مرة عمّا حدث فى هذه الليلة ، والتى رأى فيها زوجته لأول مرة . . هل هذا حب من أول نظرة ؟ فرد ينفى هذا قاطعًا : « لا . . لا . . الحب لا أعترف به . . ولكن هناك امرأة تراها جميلة جدًّا ليس هناك ما ينقصها أو يعيبها ، ولكنك تنظر إليها نظرة وخلاص ،

وهناك امرأة تنظر إليها مرة وتغش نفسك وتحاول تجاهلها حتى لا تنظر إليها مرة أخرى . ولكنك تجد أنك تنظر إليها مرة ثانية وثالثة ومرات . . فعنقك يجول ويبحث عنها حتى تشعر من لقاء نظراتكم المتبادلة بانجذاب دفين فى النفس يترك شوقًا للقاء روحى . . دى حاجة غير الحب من أول نظرة . إنما هو إحساس بتناسخ الأرواح كما يقولون » .

فقلت له : وهل لفظت بكلمة الحب لزوجتك أو لغيرها ؟

قال : « قلتها . . فقط فى فيلم حبيب القلب ، حيث كان لابد من بطلة الفيلم فى موقف أن تستكشف عواطفى نحوها فأردت التأكيد على عواطفى لها ، فعبرت عن ذلك بقولى : إننى أحبك . وفيما عدا ذلك فلم أقلها إلاّ لأم كلثوم أيضًا كسيدة للغناء العربى ، فكنت أقول لها أحيانًا إننى أحبك . . وكان هذا إعجابًا وتقديرًا لفنها وصوتها وشخصيتها واعتزازًا بها . . وكانت أيضًا تبادلنى ذلك بقولها لى : إنى أرى فيك يارياض صفات لا أراها فى الناس » . .

الوسام والضرائب معًا :

بدأت معرفتى الشخصية بالأستاذ رياض السنباطى فى شهر رمضان المبارك من عام ١٩٧٨ . . بقاعة معهد الموسيقى العربية . . وكان هذا أول لقاء بينى وبينه ، حيث كان يجرى بروفات أغنية « والتقينا » تأليف الشاعر مصطفى عبد الرحمن ، لتشدو بها المطربة المغربية عزيزة جلال .

وكان يبدو متحمسًا لهذه المطربة الصاعدة السمراء . . فكان دائم التوجيه والنصيحة لها . . فقد قال لها : يازوز لابد أن يشبع المستمع من الأغنية عندما تطربه الفنانة . . فيجب ألا تتركيه ظامئًا يبحث عن أخرى . . ولذلك فيجب إعطاء النغمة الموسيقية مساحتها من الصوت المناسب لها .

وكانت تعمل معه دائمًا فرقة سامى نصير منذ وفاة أم كلثوم وحل فرقتها الموسيقية ، وكان الرجل يبذل مجهودًا أكبر وعنيفًا فى متابعة اللحن ، وإعطاء ملاحظاته . . حتى يتصبب العرق من جبينه ، برغم برودة الطقس .. يبذل مجهودًا لا يتناسب مع عمره الذى تجاوز السبعين عامًا ، وبرغم مرضه بالربو ذلك المرض الذى كان يداهمه بأزمات من حين لآخر.. ولكنه كان يجد فى العمل ذاته وكان متحمسًا وجادا.. لا يترك أى فرصة للاستهتار فيما يعمل.. وعندما تأخر بعض أعضاء الفرقة ذات مرة غضب لذلك فقال : إن لم تنظم البروفات غدًا فسأضطر إلى الاعتذار عن تقديم هذا اللحن ، واستطرد قائلاً : إننى لا أرضى عن عملى أن يكون ناقصًا لأنه يحمل اسمى .

ومع ذلك فهو أيضًا خفيف الظل برغم جديته أثناء العمل . . ليلطف من جو التوتر الذى يسود أحيانًا البروفات . فكان يرقب سامى نصير وهو يضبط أوتار القانون تمهيدًا لبداية عزف الفرقة . . وحتى يبدد إحساس أعضائها بالانتظار قال : ذات مرة كان العقاد – الله يرحمه –

عازف القانون الكبير يضبط أوتار قانونه . . وكان يلاحظه بشغف رجل بسيط حتى أصابه الغيظ بما يفعله العقاد فاقترب منه قائلا : تعبان ليه . . اربطهم كلهم فى وتد واحد وشدهم مرة واحدة . فضحكُ الجميع وعزفت الفرقة بروح معنوية عالية .

وكانت دائمًا رياض – رياض السنباطى – الموسيقية تجذبنى لارتيادها من حين لآخر ، كلما علمت أنه يجرى بروفات إحدى أغنياته الجديدة . .

ففى أستديو ٣٠ بمبنى الإذاعة والتليفزيون حيث كان يجرى إحدى البروفات . . وعندما انتهى من تسجيل جزء منها أثناء فترة استراحة قصيرة . . كنت بجواره نتبادل الحديث . . وفى أثناء ذلك انتابته لحظات من الصمت كان يجول فيها ببصره أنحاء الأستديو ثم همس لنفسه بأسى قائلا : « هذا المكان عملنا فيه أنا وأم كلثوم . . كنا نعمل من الساعة العاشرة صباحًا حتى الخامسة مساءً ثم نأكل سندوتشات جبنة ونكمل شغل . . الله يرحمك يا أم كلثوم » .

فسألته أيضًا بهمس : وهذا الأستوديو أيضًا . . هل رأى دموع أم كلثوم فى أثناء إجراء بروفاتها لإحدى أغانيها أم كل أغانيها . . تأثرًا بما كانت تشدو به ؟

لحظات من الصمت تلف لسانه . . بصره يجول بما يحيط من حولنا . . وهمس قائلا « أيوه . . لقد بكت أثناء بروفات أغنية

لأطلال . . وكان ذلك مفاجأة لى . . حيث كانت دموعها غزيرة تنهمر بلا سبب واضح لى أيضًا . . فسألتها برفق عن ذلك قائلا :

الأغنية . . بتفكرك بحب أو بإنسان عزيز ياثومة ؟

فردت بصوت باك : أيوه يارياض .

قلت : مين ياترى ؟

قالت حبيبى .

قلت : من هو . . أو هو فين ؟

قالت مات . . مات يارياض » .

فربت على كتفيها بحنان يواسيها حتى هدأ من روعها يذكرها باقتراب توافد أعضاء الفرقة من الاستراحة القصيرة . وإن كان فضوله دفعه لسؤالها عن اسم هذا الحبيب .

فردت بأسى قاطع : لقد أقسمت ألّا أبوح باسمه يارياض .

واحترم مشاعرها وصمت لحظات حتى بدا العازفون يتوافدون على الأستديو . وعاودوا إلى عزف الأغنية الخالدة . الأطلال .

وإن كان معروفًا أن أم كلثوم كانت تمسك بمنديل أو بآخر فى أثناء غنائها على المسرح دائمًا ، إلاّ أنها فى أثناء غنائها للأطلال خاصة . . انهمرت دموعها لأول مرة ، وقال الناس حين ذاك : لها حق . . فالأغنية مؤثرة جدًّا . . فهى قصة كل حب . . ولم يعلم الجمهور أن دموعها ليست كفنانة بل كامرأة عاشقة فقدت حبيبها موتًا .

ولَفَّتنا معًا دقائق من الصمت الحزين لذكراها . . وهز رأسه قائلا : « الله يرحمها أنا متهيأ لى أن الله الآن . نادى عليها بأن تغنى له بجوار عرشه آمرًا إيّاها بأن تسمعه صوتها . فلم أدرِ كيف بدت الدهشة على فمى أو وجهى ، إلاّ أنه استنكر دهشتى قائلا : لماذا تندهش . . إنها مخلوقته المبدعة يسمعها كما يشاء . فهو خالقها وهو قادر على كل شىء » .

وهنا اضطررت لعدم الحديث فى ذلك – احترامًا لما يتصوره – وتقديرًا لتصوفه الفنى . . وفى لقاء آخر كان يدور الحديث معه عن الفن والفنان بمصر . . وأثناء ذلك تذكر موقفًا أسف عليه وهو عندما قرر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر منحه وسام الاستقامة للعلوم والفنون من الطبقة الأولى . . وكان قد أعرض عن الذهاب للحفل لتسلُّمه وإن كان قد سمع اسمه ينادى عليه من خلال الإذاعة . . ففى اليوم التالى أحضرت له وزارة الثقافة الوسام للمنزل . . وفى نفس الوقت فوجئ السنباطى بموظف الضرائب بمنزله أيضًا وحزن لهذه المفارقة السيئة . . وتأسف لهذا قائلا : أهكذا يُكَرَّمُ الفنانون المبدعون .

ثم استدرك حديثه بسخرية قائلا : « وعندما تشكو من التقديرات الجزافية يُقال لك ادفع وبعدين نحاسبك . . فهل كان يجب أن يعامل الفنان هكذا . . وخاصة الذى يبدع ويعطى بإخلاص . . ويلتزم أيضًا بدفع الضرائب . . ألا يكفى أنه يسعد الناس ويفتح الطريق دائما للأمل . . وهو فى سبيل ذلك تحترق أعصابه ودمه وتفيض روحه

بالألم . . فالفنان كالفراشة الهائمة دائماً تعطى العسل فى النهاية » .

فحاولت الانعطاف به إلى حالة أفضل من ذكرياته ، فسألته بخفة قائلا : إنما – يا أستاذ رياض ، ما هى أطرف حكاية أو موقف لأغنية من ألحانك ؟

صمت لحظة وارتسم شبح ابتسامة على شفتيه قائلا : « تلحين رباعيات الخيام » . . عندما كنت مع أم كلثوم وأحمد رامى نختار الكلمات المناسبة لتماسك المعانى حتى تبدو وكأنها قصيدة واحدة . . كنا نبحث عن تعبير مناسب فى بيت : « اطفئ لظى القلب بشهد الرضاب » فكنا نقول اطفئ لظى القلوب برطلين كباب او جوزين حمام مشوى . . وما شابه ذلك من قفشات أحمد رامى . . حتى اقترحت عليهم اطفئ لظى القلب ببرد الشراب . . فأخذوا بهذا الرأى » . واستطرد فى حديثه قائلا : « أحمد رامى كنسمة الفجر الرقيق . . فهو إنسان شفاف ورقيق المشاعر . . حتى إنه كان فى ليلة يسهر معى فى فيلتى التى كنت أقطنها بمصر الجديدة . . وعندما انتهت سهرتنا الثنائية قمت بتوصيله حتى الباب الخارجى للفيلا ، وما هى إلا دقائق حتى فوجئت بدقات عنيفة على الباب الداخلى للفيلا . . فانزعجت وأسرعت فى فتحه وإذا بى أرى أمامى أحمد رامى يرتجف فزعًا ، فسألته عن سبب ذلك ، فردَّ بصوت متهدج إننى أشعر كلما سرت خطوة أن هناك من يتبعنى . . وطلب منى مصاحبته لمنزله بحدائق القبة ، وعندما حاولت الاعتذار أصر على رغبته

فى ذلك . . فارتديت الروب دى شامبر وذهبت به حيث تقف سيارتى بالفيلا . . وإذا بى ألاحظ فى أثناء سيرى معه أن ظله فى الأرض هو الذى يتبعه وليس كما يظن أن هناك شخصًا يتابعه . ومع ذلك فقد رافقته حتى منزله » .

ولكل أغنية فى حياة السنباطى حكاية . . وهو يذكر ظروف كل أغنية . . وغالبًا ما يذكر أيضًا ظروف حياته وأحداثها بألحانه . . فيذكر مولد ابنته (راوية) الكبرى بأنها ولدت أثناء تلحين سلواكئوس لطلى » و(رفيقة) قد ولدت مع قصيدة « كيف مرت على هواك القلوب » (و مرفت) أثناء موسم « جددت حبك ليه » و(محمد) أثناء تلحين سهران لوحدى ، وأخيرا ولد (أحمد) مع تلحين قصيدة ولدى الهدى . . ولهذا أسماه (أحمد) وأخيرًا (ناهد) مع ياظالمنى .

كما أن الزمن فى حياة السنباطى ليس له حسابات أومقاسات فى أثناء تلحينه لأى أغنية . . يطول بها الوقت أم يقصر ، فالمهم أن تكون عملاً يزهو به . . وبانتمائه إليه ، وأن يعجب به الناس ، فقد استغرق لحن « سهران لوحدى » عامًا كاملاً ، ورباعيات الخيام لحنها على مدى عام تخلله زواجه ، حيث كان قد بدأ فى تلحينها قبل ذلك ، ثم قدمه لأم كلثوم بعد زواجه .

« وعودت عينى على رؤياك » استغرقت منه ستة أشهر ، وقصيدة « ولد الهدى » استغرقت شهرًا ونصف الشهر . وقصيدة « سلوا قلبى » فى

يوم وليلة ، وأغنية « أقبل الليل » استغرقت عامًا كاملاً ، ويعتز بها برغم أنها لم تنجح جماهيريًّا أول الأمر ، وسألته عن ذلك فقال : لأنها فوق مستوى الجمهور . . وأعتقد أنه بعد سنوات ستلقى نجاحًا كبيرًا عندما يرتفع مستوى الجمهور فنيًّا . . واستدرك حديثه هذا قائلا : كأغنية الأطلال التى لم يشعر بها الناس كما تصورت فى بداية ظهورها . . واليوم ترى الجمهور يقبل عليها ويحسها ويعيشها ويرغبها دائمًا . . فعمومًا العمل الجيد يتجلى تألقًا دائمًا بعد ما يتبلور كالماس ، أما العمل الذى يصفق له لأول وهلة فهو ينطفئ أيضًا فى أول فرصة وبسرعة .

وفى إحدى أمسياتى معه بمنزله سألته عن مضمون الأغنية العاطفية لدنيا وما تحتويه من حزن وغم وتشاؤم دائمًا . . وهذا فى نظر البعض وصمة للأغنية العربية عمومًا ، ولذلك فهم يفضلون لذلك الموسيقى والأغانى الغربية . فرد بتساؤل آخر ممتزج بانفعال مكتوم وقال : « وهل عندما يفارق الحبيب عشيقه فى فترة خصام أو فى سفر فلا يحزن أحدهما أوكلاهما للآخر؟ بل إن الأمر يصل إلى الدموع أحيانًا فى مثل هذه الحالات . . ومع كل ذلك فتبدو الأحاسيس والمشاعر – ليست حزينة – إنما مرهفة جميلة تسمو بالإنسان دائمًا وتدفعه للقاء حبيبه مرة أخرى . واللقاء حب . . وهل هناك مالا يرغب فيه » ؟ !

ثم تطرق حديثنا عن وضع الأغنية المصرية الآن . . واستمراراً لما يوجه إليها أحيانًا من هذا البعض أيضًا فقلت له : هل ما يحدث فى دنيا

موسيقانا الآن نوع من التطور الجارف ؟ وما تأثير ذلك على وضع الأغنية الطويلة ؟ هل ستتقلص وتبدو قصيرة بفعل الحركة السريعة فى المتغيرات الاجتماعية وازدياد القلق الإنسانى . واختلاس الإنسان لسعادته أيضًا لمدة دقائق أو لحظات فقط ؟ .

قال : « الأغنية المصرية – طويلة كانت أم قصيرة – المهم فيها هو جودتها وجمالها لحنًا وإتقانًا ودراسة للكلمة والمعنى . . وليس المهم أن تكون قصيرة أو طويلة . وربما تجد أغنية قصيرة تستغرق دقائق . ومع ذلك فهى جميلة ومكتملة فنيًا فترضى الجمهور . وربما أيضًا تكون هناك أغنية طويلة ولكنها كلام فارغ هزيل وأداء ضعيف . . وبرغم ذلك أعتقد أن هناك فى الموسيقى العربية أغانى طويلة خالدة .

ثم فاجأته بتساؤل حول إحدى أغنياته لأحد أفلام أم كلثوم . . فقلت له إنه فيلم « وداد » كانت أم كلثوم – بطلة الفيلم – تغنى أمام أحد الملوك بقصره ولوحظ أنها غنت الأغنية بلحنين . . فما الدافع إلى ذلك أهو استعراض لعضلاتك الفنية . . ؟ سارع بنفيه لهذا الخاطر الأخير . . ورد قائلا : أبدًا . . لقد طلب منى المخرج تلحين الأغنية بنغمة تتواءم مع الموقف الأول ، الذى أرادت فيه بطلة الفيلم أن تبث حديثًا خاصًا للملك من خلالها . . ثم بذات الكلمات طلب المخرج أيضًا أن تلحن الأغنية بنغمات تصل إلى الملك بمعنى مغاير للمعنى الأول . . أى إحداث تأثير متنوع لأحاسيس ومشاعر سَمِّيعِها . .

وعلى كُلٍّ فأى ملحن يستطيع أن يقوم بهذا ، فلم أفعل معجزة . فهى مسألة فنية يقدر عليها أى فنان إذا كان صادقًا فى عمله ، فيمكنه أن يكرر ذلك مرات ، ثم استدرك حديثه بصوت خفيض قائلاً : وأين الطرب بعد أم كلثوم ، فلقد انفضَّ سامره وانتهى عهده . فطرب هذه الأيام تشنجات من المطربين وتهليل وتهريج من الجمهور . . وهذا فى اعتقادى هستيريا مكيفات . . أما جمهور أم كلثوم فشىء آخر ، فكنت أسمعها وأستمع فى نفس اللحظة لاستحسان جمهورها . . فيقول لأم كلثوم آه وأقول أنا للجمهور : الله ، فهو يتمتع بذكاء ، ويعرف متى يصفق . . وكيف يحترم الجُمل اللحنية والموسيقية فلا يقاطعها . . بل إنه كان يصدر أحكامه على اللحن من أول مرة يسمعها . . فقد علّم الجمهور أم كلثوم وعلّمنى أيضًا . فالجمهور لدينا كان يعرف كيف يحترم الموسيقى والفن . .

موسيقانا عربية . . عربية

موسيقانا وإنْ كانت عربية الجنسية إلاّ أنها شرقية جغرافيًّا . . ومع ذلك فيرفض رياض السنباطى تسمية موسيقانا بأنها شرقية ويقول . . دعنى أشرح لك بإيجاز حكاية الموسيقى العربية من البداية . . ومن البداية أيضًا أقول إنه من الخطأ أن نطلق على موسيقانا بأنها شرقية ، لأن هذه الأخيرة المقصود بها الإيرانية والتركية والهندية والإندونيسية . . إن موسيقانا عربية لها خصائصها وسماتها المميزة وأول من عزف على العود إسحاق الموصلى العربى .

واستطرد فى حديثه قائلاً : وتمضى أعوام ثقيلة من الكساد الموسيقى حتى أواخر القرن الماضى عندما ظهر عبده الحامولى وألمظ . . فقدما معًا فنًّا جديدًا . . ومع ذلك وبرغم جمال ما كان يغنيه مطربو عصر الحامولى ومابعده . كالشيخ المنيلاوى . وأبو العلا محمد . . فإن الدائرة الفنية التى كان يعيش فيها اللحن أو يبدو فيها كانت ضيقة . . حتى تشعر بأن اللحن كان مقفولاً ، أى محدودًا ، وإنْ كان جميلا . . ثم كان الشيخ سيد درويش الذى لم يحدد للموسيقى العربية دائرة بقدر ما ميزها وحددها بجنسيتها العربية .

وفى الموسيقى العربية موشحات . . فهى فن موسيقى انتشر موسعًا بمصر على الطريقة المولوية أى الطريقة الإسلامية . . ومع ذلك فالملاحظ أن موشحات المولويين مأخوذة من الموشحات التركية « أمان ياللى » وغيرها ويتنوع أداؤها من بلد لآخر – ففى العراق موشحات جيدة . . وقد سمعت عبد الحليم حافظ يغنى موشحات تهز المشاعر بعنف فى تونس . وفى الخليج موشحات تهز الأعطاف . فالموشحات تختلف من بلد لآخر كأنها لهجات متعددة وإن كان ينبوعها لغة واحدة .

كما استمعت إلى موشحات فى مصر من أساتذة الموالد . . أمثال الشيخ الفيومى ، والشيخ إبراهيم الشعرانى ، والشيخ طه الفشنى ، الذى كان فى صباه أفضل من يؤدى دور المولد النبوى . وكذلك المرحوم الشيخ محمد رفعت ، والشيخ على عمر ، والشيخ محمود صبح . فقد كان لكل هؤلاء أثر فى تكوينى الفنى . فقد غاصت فى أعماق مدائحهم وأساليبهم فى الأداء السهل الممتنع ، فقد لحنت موالاً من هذا حينما أمسكت بعودى ذات مرة ، وعندما أيضًا بدأت أخطو نحو هوى الأنغام والألحان .

وعندما جئت للقاهرة سمعت روائع « أبو العلا محمد » (على السلوان قادر ، وأفديه إنْ حفظ الهوى أو ضيعا) وكذلك سمعت عبد الحى حلمى ، وغيرهم من المطربين الذين رحلوا منذ زمن – فكنت أجد لذة فى الاستمتاع بطابعهم المميز ، كما وجدتُ بالقاهرة محمد القصبجى أحسن عواد فى مصر ، وملحنًا قديرًا كبيرًا . . لكننى برغم ذلك وتأثرى

بهؤلاء فإننى أحسست بعدم الرضا الكامل لوجودى بالقاهرة من جانب والدى . . مما دفعنى إلى أن أخوض ساحة الفن بأسلحتها الحقيقية ، فقررت الالتحاق بمعهد الموسيقى . وكان مشوارى الطويل فى الموسيقى العربية . . .

ثم وجهت إليه سؤالى قائلا : موسيقانا لم تتطور ! ولكن كيف ولماذا وما هو المفترض أو المتصور من التطور فى نظرك ؟

فرد بحسم قائلا : أيوه .. لم تتطور الأغنية .. وإذا كان هناك أمل فى تطويرها فذلك عن طريق الارتقاء بالكلمة .. أى المعنى ، ثم يأتى اللحن تبعًا لذلك معبرًا راقى النغمات .. بهذا يكون هناك تطور صحيح .. إنما نجد اليوم – للأسف – كلامًا فارغًا وموسيقى هزيلة ، ومطربًا أو مطربة ضعيفة ، ويقال مع ذلك إن هذا تطوير .. لا .. لا .. هذا تطوير فى نظرهم فقط .. أى فيما يقدمونه ، ولكن الحقيقة هى أنهم لا يستطيعون التطوير .. لأن الطرب القديم عميق وقوى لا يمكنهم أداؤه ، لأنه ذو مقومات فنية لا يملكونها .

ومع ذلك .. فإننا لو نظرنا لحياتنا الموسيقية اليوم – وهى ذات ألوان كثيرة – لوجدنا فيها النمطى المحافظ على اللون المصرى القديم الأصيل ، وهذا هو الذى أعترف به وبوجوده .. أما البقية فليست لها شخصية ، لأنها خليط من الإفرنجى التافه ، والعربى الباهت ، فإذا جمعت الاثنين معًا تكون النتيجة لا شىء .. ولذلك فأرجو من زملائى

وأولادى من الملحنين أن يخطوا بمواهبهم التى لا أنكرها نحو الموسيقى العربية العريقة بما فيها من حلاوة وصعوبة .. وهذا ما يقال عن السهل الممتنع ، فأتمنى أن يلحنوا قصائد وأوبريتات » .

وصمت لحظات يسترد فيها أنفاسه المتلاحقة .. ثم استطرد حديثه بهدوء قائلا : ومع ذلك .. فأعتقد أنه سيكون لموسيقانا شأن كبير إذا تولتها الدولة بالرعاية .. فالثقافة تعنى الرفعة والارتقاء بكل فن من الفنون .. وكذلك لو اهتمت بتربية النشء وتعليمه التذوق الموسيقى بالمدارس . فستنمى لديهم حاسة الذوق لهذا الفن الجميل ، وتأثيره على وجدانهم ، وصقله وتهذيبه .. وكما يتعلم الطفل منذ الصغر الصلاة والدين الإسلامى فلابد أن نبث فى روعه نغم الموسيقى العربية الأصيلة .. خاصة أدوار أو موشحات – عبده الحامولى ، ومحمود عثمان ، وأمثالهم من المطربين القدامى – ولا سيما فى الفترة الانتقالية للأغنية المصرية – حتى ظهور موسيقارنا سيد درويش ، الذى أحدث تغييرًا جذريًّا فى الأغنية الفردية والجماعية والمسرحية . فقد لمسنا فيهم الجديد المتطور الذى لم يتعد على الموسيقى العربية الأصلية . والذى سِرْنَا من بعدهم على منواله .

فالغناء هو الطرب .. أى أن نهتز من الأعماق حتى نردد – استحسانًا – لفظ الله .. الله .. فقد كنت أطرب فى حفلات أم كلثوم حين أرى مدى إعجاب الجمهور بها ، فإنه يسمعها ويتجاوب مع صوتها

وكأنه يغنى معها .. أما الآن فالجمهور تنتابه حالة من العصبية . والصفير بأصوات عالية . ولا يحمل الإعجاب إلا معانى الصخب والشوشرة بدون أى مبرر لذلك .

وفى غمار هذا الغضب الذى كان يعيشه لواقع حال موسيقانا اليوم تبادلنا أيضًا الحديث حول أسباب عدم تطوير الأغنية.. ومنها إصرارنا مدة قرن من الزمان على كلمة ملحن فقط . وأنه لا يوجد فى العالم ما يسمى بملحن فقط أو مؤلف فقط ، بل هناك الموسيقار الدارس الذى يجمع بين الإبداع والخلق الموسيقى والتلحين والتوزيع .. كل هذا معًا .

فرد مؤكدًا على هذا قائلا : « إننى أتفق مع هذا الرأى . وكنت أتمنى أن أكون جامعًا بين التلحين والتوزيع الموسيقى ، ولكننا جميعًا – وبكل أسف من أول الأستاذ محمد عبد الوهاب إلى الشباب من الملحنين – نستعين عند توزيع ألحاننا بمتخصصين آخرين فى هذا المجال . وبكل تأكيد إذا قام الملحن بوضع توزيعه الموسيقى بنفسه لألحانه فسيكون هذا أفضل وأعمق وأجمل وأقوى تأثيرًا على المستمعين ، ولاشك أن من أسباب نجاح الموسيقار محمد عبد الوهاب كمطرب أنه كان يلحن لنفسه ويغنى قصيدته كذلك بصوته وأدائه المميز .. ولذلك حينما قمت بغناء الأطلال بصوتى كان الجمهور سعيدًا بهذا .. وأيضًا حينما كنت أستمع إلى زكريا أحمد فى جلسات خاصة وهو يغنى ألحانه لأم كلثوم – على عوده كنت أطرب له كثيرًا ولروحه الحلوة فى الأداء .

ولأنه يؤدى لحنه بصوته الذى يبعث فيه دمه وروحه ومشاعره . فكان يصل إلى أعلى درجات الطرب . وهذا الكلام ينطبق أكثر على التوزيع الموسيقى إذا قام به الملحن . ومع ذلك فالموسيقار أو الملحن الحقيقى – فى رأيي – هو الذى يضع موسيقاه ويبثها للجمهور دون الهبوط إليه .. بل يرتفع به إلى أعلى درجات السمو والسعادة وهو الذى لا ينظر للماديات بقدر ما ينظر إلى المجد والرفعة والجودة وخلود موسيقاه . وبث تنهدات حارة .. ليسترد فيها أنفاسه : ثم استدرك حديثه قائلا : « وبالطبع .. فلا يمكن أن نعتبر تطعيم الموسيقى العربية بجمل من ألحانٍ غربية نوعًا أو دربًا على التطوير .. فإننى أرفض هذا تمامًا .. فهذا ليس تطويرًا . بل إنه خطأ فاحش لأن طابعنا العربى يحتم علينا اتباع لوننا العربى الأصيل المعبر عنا . فهو وجودنا وكياننا المميز بين الأمم والشعوب . وأتمنى ألا يفهم أن التطوير هو اختلاط موسيقانا العربية بالغربية .. فموسيقانا العربية الصميمة ثرية بالجمل الموسيقية الرائعة .. بل إنها متدفقة فياضة بالعاطفة .. اعترف بها موسيقيو الغرب . فعلى سبيل المثال كان الموسيقار الفرنسى « سان سانس » دائم الزيارة لمدن الشرق كل عام . حتى انطبع الكثير من مؤلفاته بطابع ولون شرقى .. وموسيقى أوبرا شمشون ودليلة دليل ساطع على ذلك . وأيضًا المؤلف الفرنسى « بيزيه » واستعانته بألحان شرقية فى تلحين أوبرا «كارمن » . بل إن هناك عباقرة الأسبان « دى فالا . وجراندوس » وغيرهم الذين أخذوا من كنوز

الشرق ما هو جميل من إيقاع وأغانٍ شعبية ، فأصبحت مؤلفاتهم آية من السحر والابتكار » .

ولحظة صمت هدأت فيها نفسه ثم عاود حديثه بهمس : « كم كنت أتمنى للأوبرا العربية وللأوبريت مزيدًا من الانتشار لتثقيف الجماهير ، وإبعادها عمّا تهبط إليه الأغانى الرخيصة ، لتبدو ذاتيتنا الموسيقية بوضوح ، فهذه أيضًا وسيلة للارتقاء بالشعوب » .

ثم عاد صوته يعلو قليلا ويقول : « ولابد من انتماء الفنان .. فهذا موضوع له أهمية كبيرة ، لذا يجب على كل فنان أن يعيد النظر فيما يقدم من موسيقى وألحان لينهل من نبع مصر فَنّه وعطاءَه .. وإننى مصمم على الاستمرار فى « مشوارى » الذى بدأته منذ نصف قرن بالحفاظ على موسيقانا العربية والتى تنتمى وتنبع أصولها من أرضنا الطيبة .. وأرى أنه يجب على جميع الزملاء أن يكون تأثرهم أولا بالتراث العربى الموسيقى ، والبعد عن الفن المستورد الغريب على مسامعنا ، الذى لا يتناسب مع طبيعة وذوق شعبنا الأصيل . ولذا فإننى أرفض تمامًا تلك الألحان التشنجية التى تعزف الآن فى الفنادق والملاهى التى يغنيها أدعياء الغناء ، محاكاة لغناء الهيبز ذوى الحركات الهستيرية والصراخ والعويل ، وما يصيب المستمع منها من الاضطراب العصبى والألمَ النفسى ، فنشر هذا اللون العريق الذى تميزت به حياتنا الموسيقية منذ سلامة حجازى .

وعبده الحامولى ، وسيد درويش ، وغيرهم هو الملاذ الوحيد لانتمائنا . فلابد من الانتماء لفننا الأصيل الذى أتمنى أن يسود فى حضارتنا اليوم .

وإذا كنت أرفض تطعيم موسيقانا بجمل لحنية غربية .. فلا مانع من الاستعانة بتطوير الآلات الموسيقية وتطويعها لعزف موسيقانا .. مادامت تضيف أبعادًا جديدة فى العزف . ولا تشوه الجمل اللحنية العربية .. لذا فقد أدرك محمد عبد الوهاب ذلك منذ نصف قرن مضى .. وكان أول من أدخل آلة الكونترباص والشيللو فى عزفنا . واستعملها أحيانًا لإضفاء شىء من الجمال والخفة على اللحن .

أما آلة الأورج فهى آلة لها إمكانيات هائلة فى عزف النغم المتنوع . واستعملتها لأول مرة فى أغنية أقبل الليل لأم كلثوم ، فخلقت جوًّا رائعًا فى المقدمة وبعض مقاطع الأغنية ، جذب الجماهير لسماعها .. ولكنه استدرك قائلا : « ومع ذلك فإننى أؤكد لك أن العود سوف يحتفظ بجماله وشخصيته إلى الأبد . فهو الآلة الوحيدة التى يلحن عليها الملحن .. فَدلَّنى على ملحن يضع ألحانه على الأورج أو الكمان أو البيانو كما يلحن على العود . فيمتد عمره ما بقى على ظهر الأرض ملحنًا أو موسيقيًّا » .

وبابتسامة ذات مغزى تدارك حديثه قائلا : « وعلى كلٍّ فإن موسيقانا وصلت إلى مسامع العالم عندما غنت أم كلثوم الأطلال فى باريس وتذوقها الفرنسيون وصفقوا لها طويلا . فقد كانوا يستمعون إليها من خلال سماعات تترجم لهم كلمات الأغنية . إلا أنهم طربوا إعجابًا للحن

أيضًا . . فالمسألة إذن مسألة توزيع الموسيقى ، سواء عن طريق الأسطوانات أو شرائط الكاسيت فى أنحاء العالم .

وعلى كلٍّ أيضًا . إذا كانت الموسيقى الأوربية موسيقى عالمية فلأنها بناء فنى ذهنى ، شأنها فى ذلك شأن القصة التمثيلية . بعكس موسيقانا التى تعتمد على الطرب فقط . . ولذا فقد عنيت بأن تكون الموسيقى هى الأساس والبناء – فى أى لحن لأغنية أقدمها للجمهور . . . أى أن تستمد الأغنية قيمتها الفنية الأساسية من الموسيقى » .

تلحين موسيقى الشعر :

إذا كان للشعر موسيقى خفية – كما هو معلوم – فإن رياض السنباطى يلحن هذه الموسيقى . وهذا ليس بمستغرب . . وإن كان نادرًا ما يلاحظ المرء نغم الموسيقى الخفية للشعر تتألق فى لحن موسيقىٌّ واضح .

فالموسيقى – أصلاً – قد استمدت وجودها من الغناء ، حيث بدأ الفن الموسيقى عندما نجح بعض المنشدين فى نظم من إنشائهم على نحو إيقاعى منغم . . وعلى ذلك فقد ظل فن الأنغام مرتبطًا بالغناء طويلا . . حتى عندما ظهرت الآلات الموسيقية فإنها وجِّهت وَوُظِّفت فى مسايرة الصوت البشرى أو تقويته أو تزيينه .

ثم تطورت وسائل الفن الموسيقى . . حتى أصبحت هناك موسيقى للآلات فقط تنفصل عن الغناء . . وبالطبع فإنه نظرًا لاتساع مجالات

لتعبير بها فقد أخذت تفوقه بالتدريج . حتى أصبحت موسيقى الآلات الأساسية عند الغرب . وإن كان فن الغناء لايزال على ازدهاره .

وإن كانت للغناء لذّة سلبية فهى تبعث فى الإنسان انفعالات هادئة أحيانًا . تلطف أعصابه ونفسه وتطير به بعيدًا عن واقع ومشاغل ومتاعب الحياة . وأحيانًا انفعالات عنيفة تبعده عن الأمور الجدية فى حياته . وبالطبع فإن كثيرين يعتقدون أن هذه هى الوظيفة أو الهدف الأساسى للموسيقى . وأن مهمتها ترفيهية فحسب .

ومع ذلك فلا يمكن إنكار الجانب الإيجابى للتأثير الموسيقى لدى الإنسان . ألا وهو إيقاظ العقل . وتفتح الحواس وتنبيه الملكات بوعى لكشف حقائق جديدة كانت النفس تجهلها من قبل . بل مع كل تكرار لسماع أغنية محددة يبدو الفكر دائمًا من خلالها متجددًا . كما يبدو ذلك فى الخيال أحيانًا .

فالموسيقى كالتفكير . لكل منهما بُعد زمنى فقط . وذلك يعود لطبيعة الوسائط الحسية التى تنقل إلينا الموسيقى . وعلى ذلك فهى أيضًا تعتمد على البعد الزمانى .

وعلى ذلك — وبرغم أن الموسيقى وليدة الغناء . وقد انتشرت أكثر منه — فإن البعض أقر بسمو الموسيقى عن الكلمات أو الغناء ذاته . أى لكلمات الممتزجة بالموسيقى والصوت البشرى . وقالوا إنها قائمة بذاتها . فهى ليست فى حاجة إلى شعر . أو نثر . أو زجل . وذلك حتى تكون

أكثر تعبيرًا . . لأنها ذات معانٍ تصل إلى كل إنسان بمعنى عام أو خاص ، بعكس الأغنية التى تحدد المعنى بالنسبة للإنسان .

غير أن موسيقيًّا كبيرًا وهو الموسيقار الألمانى ريتشارد فاجنر ١٨١٣ - ١٨٨٣ قد حاول التقريب بين الموسيقى والشعر ، وذلك ليتحدد المعنى العام للموسيقى داخل النفس البشرية ، بمعنى خاص يسعد الإنسان نفسه به أكثر ، أو تأخذه إلى عالم آخر ربما لا يجذبه منه المعنى العام للموسيقى الذى يمكن أن يعيشه .

وبهذا المعنى الأخير فى موسيقانا العربية نجح بعض الملحنين فى تحقيق هذا المعنى ، أى امتزاج الشعر بالموسيقى ، حتى يبدوا وكأنهما شىء واحد وأكثرهم قدرة فى ذلك كان رياض السنباطى . فموسيقاه لا تهز الجسد - فهى ليست راقصة - بقدر ما تهز النفس بعنف ، وأحيانًا بهدوء . فتهزها بعنف عندما توقظ بنا أحاسيس ومشاعر فياضة ومتدفقة تسمو على غرائزنا وما يحيط بنا من عالم مادى . . وبهدوء عندما نشعر بأنَّ هناك أحاسيس ومشاعرَ تنسال من أعماقنا لتتسلل بين ضلوعنا ، فتطفو على وجوهنا فى هدوء وسكينة . فموسيقاه تلحن الأحاسيس والمشاعر وإنْ كانت - أحيانًا - قاسية فهى تسمو بها أيضًا حتى لو أدت إلى انهمار الدموع منْ عيوننا . . وما هى إلاَّ لحظات حتى تتفتح عيوننا بتفاؤل متجدد . . حيث تكون قد نمَّت حسن المشاعر وصدقها ، بل أحيانًا يستيقظ وجداننا على أحاسيس ربما لأول مرة نكتشفها داخل نفوسنا ، فهى موسيقى ضوئية

تتدلى من قلوبنا . . وناعمة لعقولنا . . وفخمة لكياننا . . فهى زمنية . . جزء من الكائن الزمنى ألا وهو الإنسان ، فأصبحت من تكويننا الوجدانى أيضًا .

وعن الشعر قال لى السنباطى : « نحن أبناء جيل يحترم الشعر ، ويعتبره الصديق الأول – التَّوْءَم الثانى للموسيقى . فكم كان رائعًا عندما كان يغنى محمد عبد الوهاب شعر أحمد شوقى فى « ياجارة الوادى » وعلموه كيف يجفو . . وعندما تعاونْتُ مع أم كلثوم كنت أشعر بأننى فى حاجة لعمل قصائد موسيقية عظيمة . . فالأنغام بأعماقى تفور وتجول تبحث لها عن متنفس ضخم . . وكان هذا فى الشعر ، فاخترت من ديوان أحمد شوقى « سلوا قلبى » وأعجبت أم كلثوم ، لأنها مزيج من الغزل والوطنية والتصوف . . وحازت حب الجمهور بعدما غنتها أم كلثوم من تلحينى . . حتى حدث ذات مرة عندما كانت تغنيها بالإسكندرية . وما إنْ وصلت إلى البيت الذى يقول :

« وما نيل المطالب بالتمنى　　ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا »

حتى هبت الجماهير بالتصفيق المتواصل ، واهتزت قاعة المسرح بالهتافات الوطنية . وفى الصباح احتجت السفارة البريطانية على الأغنية التى يمكن أن تحرك الجماهير إلى ثورة . . فهذا هو الشعر الموسيقى . أى هذا هو الفن . فانظر كيف نقوم به . . وبالطبع فلم أحرم نفسى من غناء القصائد كما ألحنها أيضًا . . فقد قدمت بعضها بصوتى أحيانًا كقصيدة

« أشواق » للشاعر مصطفى عبد الرحمن التى يقول فيها :

أيها الناعم فى حلم الخيال . .
تذكر العهد وماض الصفحات . .
لا رأت عيناك شكى وضلالى . .
وحنينى ولهيب الذكريات .

وعندما انتهى من ذكر هذه الأبيات الرقيقة سألته قائلا : هل لوزن الشعر أو بحوره أو لقوته . أو ضعفه دخل فى اللحن وقوته وجماله أو تطوره ؟ قال : « بالطبع . فمعانى الشعر تدفع الملحن الذى يحس بها إلى الارتقاء بالأنغام . . فاللحن يخلق من جمال الشعر ومعانيه » .

وكان النقاد والجمهور أيضًا قد أقروا بأن السنباطى أفضل من يلحن الشعر فى العالم العربى منذ بداية هذا القرن حتى الآن . . وهنا عقب السنباطى على ذلك بقوله : « إذا أراد الفنان أن يكون صادقًا مع نفسه ومع الناس فلابد له من اختيار اتجاه يبتعد به عن الاتجاه الذى يتزاحم عليه الآخرون . . وقد اخترت اتجاهى لتلحين القصائد ، فهذا هو الأصعب . ولكنه الأبقى والأعمق أثرًا . . وتركت اتجاه الأغنية الخفيفة للآخرين يرتعون فيه كما يشاءون » .

وصمت لحظة . وسرح بخياله ثم عاد بانفعال مكتوم فقال : « لقد توقف الشعر بعد وفاة أم كلثوم . . فكانت تؤديه وتبهر به الجماهير بانفعالاتها الصادقة وإيمانها به . . فيرتوى السامع منها كالظامئ فى

الصحراء . . بل إن الشعر أيضًا كان يرتوى بصوتها ، فيبدو للجمهور رائعًا بسيطًا مهما كانت صعوبة فهمه » واستطرد حديثه قائلاً : « ورأيى ثابت برغم أن هناك بعض المطربات يغنين الشعر من تلحينى أيضًا ، إلا أنه بكل أسف لا يحصل أداؤهم على إعجاب وتقدير الجمهور كما كان ذلك عند أم كلثوم » . ثم ينظر إلى الميكروفون الذى كان قائمًا بالأستديو والجالسين به . . ويقول بشىء من التهكم : « وعلى كُلٍّ فما يُسمع الآن تقع مسئولية انتشاره على الإذاعة والتليفزيون وكذلك شركات الأسطوانات ، فقد كان يوجد – من قبل – مكتب ملحق بوزارة الداخلية اسمه « المراقبة على المصنفات الفنية » يرأسه عبد الحميد عثمان ، ابن أخ الملحن القديم محمد عثمان . حيث كانت مهمته محو الكثير من الأسطوانات لسخافة معانيها ، فكانت لا تنشر ولا تُباع ولا تُذاع .. أما الآن فأى شىء ينشر ويُقال عنه إنه فن .. فالمسئولية إذن – أولا وأخيرًا مسئولية الإذاعة والتليفزيون » .

وتمتزج نبرة حنان بصوته الهادئ قائلاً : « أمّا ما يسمعه شبابنا اليوم فله عذره لعمره الزمنى ، فهو يريد موسيقى سريعة الإيقاع قصيرة ، تتناسب مع عصره وعمره وشبابه ، وتسليته ، بعد متاعبه اليومية وقلقه اليومى . . ومع ذلك فيجب ألاّ يمنعه هذا من إعطاء نفسه وقتًا . ولو ضئيلاً للاستمتاع بالفن القديم ، أو الموسيقى العربية الأصيلة بمعانيها الجميلة التى غنتها أم كلثوم . . وأيضًا محمد عبدالوهاب فى أغانيه القديمة

الخالدة التى لحنها وغناها بصوته . . فلو قام التليفزيون بتصويرها اليوم فأعتقد كأنها ستجذب الشباب للالتفاف حول أصالة فن بلده . . فهى تحتوى على صور شعرية رائعة تتواءم مع روح الشباب الخيالية وتصقل غرائزه حتى لا تكون مطلقة العنان فتؤذيه وتضر بالمجتمع . . فثقافة الروح لا حدود لها . . وبدايتها فن جيد راق » .

وأثناء حديثنا المعتاد فى إحدى الأمسيات بمنزله سألته سؤالاً كان قد وجه إليه من كاتب كبير حول أصعب قصيدة ، تردد فى تلحينها أو وجد صعوبة فى تقديمها . أوكانت تعنى له موقفا أو حدثًا أو منعطفًا فى مشواره الفنى الطويل . . ؟

قال : « إنها الأطلال للمرحوم الدكتور إبراهيم ناجى . فقد كلفتنى بها أم كلثوم وعندئذ قلت لها : إننى مقدم على عمل كبير ، ولكننى متردد ، بل متخوف منه ، برغم ثقتى بنفسى . فردت قائلة : طيب لما أنت بتقول إنك واثق من نفسك ففيمَ التخوف والتردد . . فقلت لها : أغنية أنت عمرى التى لحنها عبد الوهاب مازالت ترن فى آذان الجماهير برغم أنها ليست قصيدة وكلماتها شعبية أو عامية ؟ . .

ولكن مع ذلك . وبرغم هذا التخوف ، فقد بدأت ألحن القصيدة ، وكنت أحس بمشاعر ناجى وأعيش معانيها . . ولحنت نصفها بالقاهرة ثم انتقلت لشاطئ العجمى واستكملتها هناك . . حيث كان يرافقنى ذلك « الماندولين » الذى لحنت به نصفها بالقاهرة . . وقد

أمضيت وقتًا لطيفًا مع أم كلثوم ، حيث كانت تقطن بقصر الضيافة بالإسكندرية ، والذى كان مقررًا أن تقيم به بناء على تعليمات الرئيس عبدالناصر .

ثم عدت للقاهرة ومعى تعليماتى بجمع الفرقة لإجراء البروفات استعدادًا لافتتاح الموسم بهذه القصيدة فى فبراير عام ١٩٦٦ . وكنت أيضًا قد تركت لها شريطًا سُجلَ عليه اللحن لتستزيد من التدريب عليه وحفظه .

ثم شاركتنا فى البروفات التى استمرت حتى قبل الحفل بيوم واحد . ولكنها همست بعد هذه البروفة لى قائلة : إيه رأيك يا رياض . أغنيهابعد بكره ، فقلت لها : كما تريدين ، فحين تشعرين بأنك ستلتقين بالجمهور بكل ثقة واطمئنان فى أدائها . . فغنيها . . ولكنها لم تغنيها فى بداية الموسم .

وكتبت الصحف أنها تأجلت لشهر مارس . . وقبل حفل هذا الشهر أيضًا أجرينا بروفات أخرى حتى وصلت إلى القمة فى أدائها . حتى إننا كنا نهلّل لها طربًا كالجمهور تمامًا . ولكنها همست أيضًا فى أذنى قائلة : إيه رأيك ؟ فقلت لها : غنيها على بركة الله فردت قائلة : لا . . فليكن ذلك فى الشهر القادم .

وقامت الدنيا ولم تقعد . . وكتبت الجرائد وتساءلت عن هذا التأجيل . . وفوجئت بمكالمة تليفونية من محمدعبدالوهاب يسألنى بلهفة

وبلباقته المعهودة عن سبب هذا التأجيل قائلا : الناس مشتاقة يارياض للحن الجديد . . فماذا حدث ؟ فكان ردى عليه : أنه لم يَحِن الوقت الذى يريده الله لتبدع أم كلثوم بها .

ثم كان شهر أبريل . . وغنت أم كلثوم – فى شهر الكذب كما يقولون – الحقيقة الجميلة : الأطلال – وفى صباح ليلة حفلة إذاعتها استيقظت على تليفونها فى الساعة الثامنة صباحًا وقالت لى : مبروك يارياض . لقد انزاح من فوق أكتافى جبل – ألف مبروك – يارياض .

ويبدو أن نجاحهما كثنائى : أحدهما يلحن القصائد باقتدار ، والآخر يغنيها ببراعة ، قدْ جعلهما يفكران فى تلحين القرآن الكريم . . ولو أنه بالطبع مهما وصلت قصيدة أو قصائد إلى حد البلاغة فإنها يمكن ألاّ تصل إلى بلاغة القرآن الكريم . . فوقع اختيارهما معًا على صورة الرحمن ، وقد حاول السنباطى أن يلحن بعض آياتها ، إلاّ أنه تراجع وشعر بخوف ورجفة شديدة إزاء ما يحاول فعله . . وعزف عن ذلك . . وسُئل فى ذلك فقال : « إن الله تعالى يقول : (ورَتِّل القرآن ترتيلا) ولم يقل عز جلاله – « ونغم القرآن تنغيمًا » .

وأسدل الستار تمامًا على هذا الموضوع ، وإنْ كان قد طُرِحَ مرة أخرى من جانب عبد الوهاب ، إلاّ أنه لم يُكتب له أن يخطو أى خطوة عملية فى هذا . . وبالطبع . . يجب ألاّ يفكر إنسان فى هذا أبدًا . .

السنباطى . . والأضواء

والسنباطى لا يثق ثقة كاملة فى الصحافة . . كأداة اتصال بينه وبين الناس . . كما أنه يؤمن بأن التاريخ – غالبًا ما يكتب بأمانة . . فيقول : «إنه برغم التطور الهائل فى التكنولوجيا الحديثة والاختراعات والاكتشافات الباهرة ، فإنه مازال هناك تزوير وتزييف فى حياة المشاهير . . بيتهوفن لم يَسلم من هذا . . بل إن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام لم يسلم من هذا أيضًا منذ قرون . . فقد نُسب إليه أحاديث لم يقلها أو يفعلها ، فهناك دائمًا مغالطات وصفت فى سرد التاريخ» .

وإلى جانب طبيعته الانطوائية وحبه للهدوء وبعده عن الأضواء كان يهرب من الصحافة وأجهزة الإعلام . . فاعتقدت الصحافة – بسوء فهم – أن السنباطى يتعالى عليها ويكابر فى طبيعته عمدًا لتجاهلها ، وحتى يكون فى برج عاجىّ تتطلع إليه دائما الصحافة كلها . . فهاجمته ذات مرة مجلة الكواكب الفنية ، وكان ذلك فى يوليو ١٩٦٦ عندما ذهب إليه مندوبها ورفض السنباطى لقاءه صحفيًا . . غير أن الجمهور قد هاجم المجلة لتهجمها على السنباطى ، ووصلت مئات الخطابات تلومها مما أدى بالمجلة أن تعتذر عن ذلك على لسان هذا الصحفى .

ومع ذلك فالصحافة وإن سعت دائمًا للسنباطى – فهو لم يسعَ إليها فقد كانت لها سطور وكلمات رائعة فنية لأنها كانت تعرف وتعى قيمة هذا الرجل .

فكتب الكاتب الكبير أنيس منصور فى السنباطى قائلاً : « رياض السنباطى هو أقدر الفنانين على فهم صوت أم كلثوم ، فقد تعانق فنه وصوتها أربعين عامًا ، ومن هذه العشرة الفنية تولَّد هذا الذوق العام ، أو هذا التفوق العام لأغانى أم كلثوم . . فرياض السنباطى أحد الذين رسموا الذوق الكلثومى . . فقد ارتاحت إلى فنه ، وكان يعطيها أيضًا ماتريد . والناس يطلبون من أم كلثوم أن تحفظ هذا اللون الشرقى للطرب ، أو هذا الطرب الفخم للغناء العربى » أما جريدة الأخبار فقد كتب فيها الناقد والكاتب جليل البندارى قائلا : « السنباطى هو شاعر الأنغام الذى ينفعل ويتأثر بالكلمات وبالمعانى ، كما يتأثر بها كاتبها ، وكما تتأثر بها أم كلثوم نفسها . ولولا ذلك لما خرجت من قلبه إلى قلب أم كلثوم ، ولما وصلت إلى قلوبنا نحن الذين نعيش معها فى معبد الحب والشكوى والعذاب وعزة نفس ما نعانى » .

والسنباطى لا يستطيع أن يعيش فى كلمات الشاعر وإحساس الشاعر ، ومشكلة الشاعر ، إلاّ إذا شعر بأن هذه المعانى تؤرقه هو ، وأن مشكلة الشاعر هى مشكلته هو :

وكلما تغنت أم كلثوم بنغم من أنغام السنباطى سرحت بأفكارى

بعيدًا فى ذلك الرجل أو المهندس الذى بنى هرمًا من الحجارة الأسوانية العملاقة ، وتساءلت فى نفسى : أيهما أخلد ؟ ! . أهو ذلك الرجل الذى يبنى هرمًا من الحجارة ، أم السنباطى ، ذلك الرجل الذى بنى أهرامًا من الألحان والأنغام الخالدة يومًا بعد يوم وجيلاً بعد جيل .

وفى جريدة الأخبار أيضًا كتب الناقد حسن عبد الرسول فى عام ١٩٧٠ فقال : « أنغام الأورغن فى أغنية البطولة لأم كلثوم ترتفع لصوت واحد يتكلم وسط سكون الكون ثم تسمع ما يشبه رعدة مبهمة من الأنغام السريعة المتعاقبة كأنها صوت طليعة ممتد يخفت شيئًا فشيئًا إجلالا لبطولة أغلى الشهداء . وأم كلثوم مع كلمات نزار قبانى زعيمنا . حبيبنا قائدنا كان صوتها آلة موسيقية ليس لها مثيل ، تعزف بدون انقطاع ، فتنصهر مع الكلمة واللحن العميق الذى صاغته شفافية ناسك الموسيقى العربية رياض السنباطى .

وكتبت مجلة الحوادث اللبنانية عنه فور تسلمه الدكتوراه الفخرية من الرئيس السادات فى أكتوبر عام ١٩٧٧ فقالت : « الدكتور رياض السنباطى . . القادم إلى صوت أم كلثوم من شارع الكادحين . . كان الزمان عام ١٩٣٤ عندما خرج من القاهرة أول فيلم غنائى عربى ناطق باسم الوردة البيضاء من بطولة المطرب الصاعد محمد أفندى عبد الوهاب وسميرة خلوصى ، وإخراج محمد كريم . . وفى الفيلم ظهر مشهد للتخت الموسيقى الذى ينتظر محمد أفندى عبد الوهاب حتى يعزف له أغنية النيل

نجاشي . وبدا أيضًا فيه عواد الفرقة فارع الطول . ممتدا يقول : شيء معقول ننتظره أكثر من كده . . ذلك العوّاد لم يكن إلا رياض السنباطي . واسمه مستمد من مسقط رأسه ببلدة سنباط فى الريف المصرى . .

ولمع عبد الوهاب كمطرب سينمائى وكوّن من كل فيلم من أفلامه ثروة طائلة . ووصل الأمر إلى رسم صورته وصورة ليلى مراد على منديل يباع فى السوق السوداء ، وعند عرض فيلم يحيا الحب سجل السنباطى خطوة فاشلة عندما استجاب للمخرج الراحل حلمى رفلة . وقبل بطولة فيلم حبيب قلبى أمام هدى سلطان ومحسن سرحان ، فقد بدا فى الفيلم يمشى مثل فرانكشتين حتى ثار الناقدون حيث قالوا عن صناع الفيلم إذا كانوا يصنعون الفيلم مع السينما أم مع سينما الرعب ، ويبدو أنه أدرك هذا الخطأ فلم يكرره .

ثم استطردت المجلة تقول : والدكتوراه الفخرية فى الموسيقى اليوم — يحملها اثنان فى مصر : محمد عبدالوهاب ورياض السنباطى ، وكلاهما مدرسة فى الموسيقى مختلفة عن الأخرى ، فعبد الوهاب تخصص فى المزج الموسيقى بين الآلة الغربية والآلة الشرقية ، فكان أول من استخدم الكلاكيت فى أغنية شرقية . وكان ذلك فى أغنية « جفنه علم الغزل » وهى من أغانى فيلم الوردة البيضاء ، وفى « ياناسيه وعدى » من أغانى فيلم يوم سعيد . وكذلك أول من استعمل الأكورديون فى سهرة منه

الليالى من أغانى فيلم دموع الحب ، وأول من أدخل الماندولين ، وكان ذلك فى أغنية « انسَ الدنيا » من فيلم رصاصة فى القلب ، وأول من ادخل أيضًا الجيتار إلى أغانى أم كلثوم فى « أنت عمرى » . . .

أما رياض السنباطى فهو كسيد درويش ، وزكريا أحمد ، ومحمد القصبجى ، رفض الآلة الغربية ، وحافظ على أصالة التخت الموسيقى . وعلى النغم الشرقى الذى يستوحى الريف المصرى . وهى السيدة زينب وليالى المولد ، وأغانى المراكبية فى نهر النيل ، وكانت له مثل عبد الوهاب مقطوعات موسيقية صامتة .

والفارق بين عبد الوهاب والسنباطى واضح كذلك فى المنطلق والمذهب الاجتماعى وليس الموسيقى فقط .. فعبد الوهاب كافح من فوق من عالم الصالونات والفضل فى ذلك يعود إلى أمير الشعراء أحمد شوقى ، الذى اكتشف موهبته وتبناها ونشرها فى المحافل التى يتردد عليها ، ومن عالم الصالونات والقصور ومجتمع الملوك والرؤساء جاء إلى صوت أم كلثوم . أما رياض السنباطى فقد كافح من تحت شارع الملاهى الشرقية ، وستديو الإذاعة ، والأفراح والموالد ، ثم أخذ يصعد سلم الشهرة درجة درجة ، ولم يبلغ القمة إلا بعد ماتعرّف إلى أم كلثوم وتكاملت موسيقاه مع صوتها .

وبرغم التباعد الاجتماعى بين الرجلين فقد كانا يلتقيان على مائدة أصوات مشتركة ، فكما لحن عبد الوهاب لأسمهان أغنية ما حلاها عيشة

الفلاح وأوبريت مجنون ليلى كذلك لحن لها رياض السنباطى أغانى كثيرة مثل « عليك صلاة الله وسلامه » ، وأيها النائم « وامتى حاتعرف إنى بحبك » كذلك لحن كل منهما للمطربة ليلى مراد فى مرحلة من المراحل . ففى أغنيتها « ياحبيبى أقبل الليل ونادانى الغرام » من فيلم بنت ذوات ليوسف وهبى وراقية إبراهيم – وضع عبد الوهاب عصارة فنه الشرقى ليقول لرياض السنباطى هكذا يلحنون . . وعلى صلته بليلى مراد تبارى الاثنان أيضًا ، فلحن لها عبد الوهاب « ياما أرق النسيم » والماضى المجهول » وسألت عليه قالوا مسافر من فيلم عنبر ، « وأبجد هوز » وغيرها من أغانى فيلم غزل البنات .

كذلك لحن لها السنباطى أجمل أغانيها مثل « قلبي دليلى » « وبتبص لى كده ليه » « ومين يشترى الورد منى » ومن بعدها تباريا فى صوت نورالهدي ، فوضع لها السنباطى أغنية « ياأوتوموبيل » وعبد الوهاب أغنية « الدنيا ساعة وصال » « وأفرح لمين وأغنى لمين » وخرج عبد الوهاب متفوقًا على السنباطى فى نقاط والسنباطى تفوق أيضًا على عبد الوهاب فى نقاط أخرى .

لكن قمة المباراة كانت فى صوت أم كلثوم . . فأغنية « عودت عينى على رؤياك » كرست السنباطى ملكًا على عرش الموسيقى الشرقية بلا منازع فلما جاء عبد الوهاب مع « أنت عمرى » انقلبت المعادلة وإن بقيت أيضًا الموسيقى الشرقية والمحافظة عليها أقرب إلى السنباطى .

وماقدر عليه عبد الوهاب فى بعض المجالات عز على السنباطى . ولم يصب أى هدف . وإن كان للأول عثرات فللثانى أيضًا عثرات .

فقد أخطأ عبد الوهاب بالغناء الموحى لأسرة الملك فاروق ، مثل الدنيا ليل ، كما أخطأ السنباطى بالغناء الموحى لنفس الأسرة عندما غنى لها يابو اسماعيل ساعدنا » .

وكما أن عبد الوهاب كان قدوة لابن أخيه المطرب العابر سعد عبد الوهاب كذلك فإن السنباطى كان قدوة لابنه أحمد ، مع الفارق بأن سعد أراد تقليد عبد الوهاب بالمسطرة وورق الكربون ، وأحمد عن طريق انتمائه إلى موجة الشباب الجديد ، أراد أن يحمل اسم أبيه ويحمل معها شخصية فنية مستقلة .

تلك بعض ملامح الدكتور رياض السنباطى . وسواء أكان صوت أم كلثوم قد جفف عصارة فنه فى الآونة الأخيرة من حياته مما جعله زاهدًا فى التلحين ، مُقِلاًّ فيه فمما لاشك فيه أن الرجل أغنى الفن الشرقى بأمتع الألحان . واستحق أن يكون قيثارة العرب .

ثم نشرت مجلة المصور المصرية تحت عنوان « السنباطى ارتفع فوق جميع الملحنين » للاستاذ الناقد كمال النجمى إن السنباطى أسهم بأكبر نصيب فى تشكيل صوت أم كلثوم داخل قلوب الناس وأسماعهم . وللسنباطى فى هذا المجال مالا ينساه تاريخ الغناء العربى أبدًا .. وإذا كان الشيخ أبو العلا محمد هو الذى أرشد صوت أم كلثوم فى صباها إلى

الطريق الفنى الأمثل ، فإن السنباطى تلقف هذه الجوهرة الثمينة التى لامثيل لها فى تاريخ الغناء كله . وعايشها منذ الثلاثينيات إلى السبعينيات ، وعايشها أيضًا المستمعون معه بكل الإعجاب والإكبار .

فقد استفادت منه أم كلثوم كينبوع ألحان لصوتها ، واستعاد هو أسلوبًا فى التلحين العربى المتطور ، وأتاح له صوتها أن يجوب آفاقا باهرة ماكانت تخطر على بال الملحنين لولا وجود صوت أم كلثوم بمميزاته النادرة الفائقة العجيبة .

وإذا اقتضت الضرورة أن يصنع السنباطى لحنًا لمطربة أخرى . وكان ذلك فى حياة أم كلثوم رحمها الله – لم يأت بخارقة من الخوارق الفنية ، ولم يفاجئ المستمعين بشىء من الإبداع بل جاء ببعض – مائدة أم كلثوم لها ولا يزيد شيئًا ، ويبدو عندئذ كأنه ملحن آخر غير السنباطى العظيم . فما هو السر ياترى ؟ ! .

عندما كانت أم كلثوم بيننا كتبت فى تحليل هذه الظاهرة مافحواه أن سبب توهج السنباطى فى التلحين لأم كلثوم وهموده أو خموله فى التلحين لغيرها هو روحه المعنوية ، فهى ترتفع عندما يلحن لأم كلثوم فترتفع ألحانه وتهبط روحه المعنوية عندما يلحن لغير أم كلثوم ، فينعكس هبوطها على ألحانه ، ذلك هو السر ببساطة .

فكان السنباطى يكاد يفقد قدرته الفنية مع الأصوات العادية ، وهى كل الأصوات التى لحن لها غير أم كلثوم .. وكان يرى أن هذه

الأصوات حسبها أن تغنى ماتبقى فى أوراقه مما لم يجده فى مستوى صوت أم كلثوم . فلم يغن عبد الحليم حافظ شيئًا للسنباطى ، إلا فى فيلمه الأول « لحن الوفاء » ، فلم يكن يستطيع أن يطلب الألحان التى يريدها ، فهو يعرف أن السنباطى لايعطيه مايناسب صوته .. وقد قال ذلك صراحة .

وابتعدت عن ألحانه نجاة الصغيرة عندما لمعت حيث كانت مقبلة عليه فى بداية أمرها عندما كانت تجرى فى أثر أم كلثوم ، ولكن نجاة اتجهت إلى الملحنين الآخرين آخر الأمر ، ونجحت بألحانهم ، وفى مقدمتها ألحان الدكتور محمد عبد الوهاب .

أمّا فايزة أحمد فلم تغن للسنباطى شيئا من ألحانه ، فصوتها شىء وألحان السنباطى شىء آخر .

ومع ذلك يظلم السنباطى من يجعل هذا الحكم شاملا كل ألحانه للمطربات الأخريات ، فإن ألحانه التى غنتها ليلى مراد فى أفلامها الكثيرة من أسطع أغانيها نجاحًا ، ومواصفاتها تختلف تمامًا عن مواصفات ألحانه لأم كلثوم ، وله ألحان أخرى ناجحة جميلة لمطربات أخريات .. فنحن لانعتبر هذا قصورًا فنيًا من السنباطى ، بل نعتبره ميزة له ، فقد تخصص هذا الملحن النابغة فى صوت أم كلثوم ، وانطبعت ألحانه بهذا الصوت العظيم ، ومن حق السنباطى لهذا السبب أن يطلب الدرجات العليا فى التلحين مادام يلحن للدرجة العليا فى الأصوات .

وبمرور الزمن وكثرة مايصيغ من ألحان لأم كلثوم أصبح لايحسن إلاّ

الطيران فى الأجواء التى يحلق فيها صوتها العبقرى ، فإذا اضطر أيضًا أن يهبط من سمائه وهو كاره غير مقنع بالهبوط ، ينعكس عدم اقتناعه على مايصيغه من ألحان ، فتبدو للمستمع كأنه تكرار لسنباطياته الكلثومية الرائعة ولكن بدون روعة أم كلثوم .

ولقد يكون ضعف المطربين والمطربات وضعف الأداء من أسباب فشلهم فى ألحان السنباطى . ولكن الألحان الجيدة حقًّا لا يمكن أن يخطئ فيها السمع ، حتى من خلال الصوت الضعيف والأداء الفاتر .

صحيح أن الغناء المصرى قد خلع إهابه القديم منذ بدأ فى تجديده محمد عثمان ، وعبده الحامولى ، ومحمد المسلوب وأبو العلا وداود حسنى ، وسيد درويش ومعاصروهم ، . ثم القصبجى . وعبد الوهاب ، ولكن ماعمله السنباطى ارتبط بصوت أم كلثوم – الذى يُعدّ ظاهرة غنائية تاريخية فذة – فكان من نصيب السنباطى أن يحقق إنجازًا نادرًا فى تاريخ الغناء المصرى والعربى ، وقد أتم ذلك على خير الوجوه ، وكان له فى صوت أم كلثوم أكبر نصيب ، وله فى ألحانها أجمل الألحان وأعظمها .. وبجانب هذا العمل الفنى الضخم يبدو على السنباطى – خارج نطاق الصوت الكلثومى – كأنه غير محسوب من حسناته ، ولكن ألحان السنباطى لأم كلثوم هى حسناته التى يثقل بها ميزانه الفنى أكثر مما تثقل جميع الموازين التى يضع فيها ملحنو أم كلثوم أعمالهم .. وسيقول تاريخ الغناء المصرى إن السنباطى هو صاحب أجمل

غناء فى عصر أم كلثوم . وهو أزهى عصور الغناء المصرى على الإطلاق .

وقالت مجلة آخر ساعة فيه : « ... فهو أول من حافظ على التراث العربى الأصيل وعمل على تطويره دون تشويه . وأكبر من خدم الموسيقى العربية بإخلاص طوال الخمسين عامًا الماضية . وهو رائد للأغنية العربية » .

وكتبت مجلة صباح الخير تقول . « السنباطى اسم بارز فى تاريخ ألحاننا الحديثة منذ جاء إلى القاهرة ، منذ مايقرب من نصف قرن ، من بلده فارسكور ، وتقدم لمسابقة الغناء فى معهد الموسيقى العربية . ومنذ هذا اليوم وهو يحفر اسمه بقوة على خريطة الغناء العربى » .

وقالت مجلة الدوحة حيث كتب بها الناقد فوميل لبيب قائلا : « السنباطى . . حارس موسيقى العرب . أول من حافظ على التراث العربى التقليدى الأصيل . أضاف إليه إضافات جمالية كثيرة أخذها الملحنون الذين جاءوا من بعده .

أدخل تجديدات كثيرة على التصور الموسيقى والانتقالات اللحنية التى لم تخرج – برغم جمالها وتجددها – عن الإطار الذى وضع أساسه عبده الحامولى فى أواخر القرن الماضى .

وأدخل من الآلات الغربية دون أى تشويه لمسار اللحن الذى ابتكره بعبقريته العربية التى جعلت ألحانه تتردد فى جميع أنحاء الوطن العربى – كاستعماله الأورج فى أغنية أقبل الليل إنه يؤثر القيم الفنية على كل

ماعداها . ويرتفع فوق كل ماهو شخصى » .

أما المؤرخ الموسيقى محمود كامل فكتب يقول : « إن ألحان السنباطى تمتاز بالطرب والعمق وصدق التعبير والأصالة الفنية . مع محافظتها على الروح الشرقية . وهو من أمهر وأقدر عازفى العود فى العالم العربى كله . وله أسلوب خاص فى الأداء » .

غضب واعتزال

كان السنباطى معتدلاً فى حياته الفنية والعامة والخاصة .. يخاف الغرور ويعده مرضًا – على حد تعبيره – إذا نال من أى إنسان – فنانًا كان أم غير فنان فقل عليه يارحمن يارحيم .

وأسوأ ما يشعر به أحيانًا عدم رضاه عن العمل الذى يقدمه . . ويتعذب لذلك ويحاول مرات حتى يشعر بشىء من الرضا والاستحسان ثم يقدمه للناس .

ولا يميل للنظر إلى أمواج البحر ولا القمر ، فضوء القمر باهت لا يشبع حياة ، إنما الشمس دفء ، لأنها الأم – كما يقول .

وكان قد عُيِّن رياض السنباطى أستاذًا فى معهد الكونسرفتوار ليدرس علم النغمات . أى الألحان أو المقامات . وهى تشبه بحور الشعر ، ولكن بأسلوب الأصوات بدلا من أسلوب الكلمة ، ولكنه فوجئ بإحالته إلى المعاش . . فلم ينبس بحرف كلمة . . ولم يحاول الاحتجاج على إحالة فنان للمعاش . . فهو يعتز بكرامته أشد الاعتزاز . . ولم يطرق أى باب ليستمر فى المعهد أستاذًا كما كان يجب . فهو كان يشعر أنه يعلّم أجيالاً شابة دروسًا هامة ومفيدة . وعن هذا الموقف يعقب قائلا : « إننى

أفضل الجلوس فى بيتى بكرامتى بعد أن أوقفت عن العمل بالتدريس فى معهد الكونسرفتوار .. بحجة المعاش » قالها بسخرية وتهكم . ثم يستدرك حديثه قائلاً : « ومادام الفنان لديه الطاقة الفياضة والقدرة على الابتكار والخلق والإيمان الفنى .. فعليه الاستمرار لنهاية العمر فى العطاء » .

قلت له : بعض الشباب من الفنانين يقولون إنك وعبد الوهاب أغلقتم الأبواب فى وجوههم فتركتموهم فى الطريق بمفردهم دون توجيه أو إرشاد أو تعليم أو مناقشة أو تقييم .. فما قولك فى هذا ؟ فرد بعنف قائلاً : ليسيروا فى طريقهم كما يشاءوا وكما يرون .. وليتركونى وعبدالوهاب .. فإننى رجل بسيط . ولابد أن يحاولوا النجاح بجدية ومثابرة .. فقد أعطينا .·. برغم المرض وضعف الصحة . وكان قد نال وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى للعلوم والفنون فى أوائل الستينيات من الرئيس الراحل عبد الناصر ، ولم يذهب لتسلمه . كما حصل على عدة جوائز وشهادات تقدير من الجمعيات الفنية بمصر ، وفى عام ١٩٧٦ رشحته اللجنة الموسيقية العليا برئاسة أحمد شفيق أبو عوف لثالث مرة لنيل جائزة الدولة التقديرية فى الفنون وحصل عليها منذ عامين وكانت اللجنة قد سبق أن رشحت عبدالوهاب لهذه الجائزة ثلاث مرات أيضًا ثم نالها فى المرة الأخيرة ، كما رشحت فريد الأطرش مرتين ولكنه توفى قبل الحصول على هذه الجائزة ولم يحظ بها .

ثم مرة أخيرة وهو عضو فى جمعية المؤلفين والملحنين بباريس عام

١٩٧٨ ، وفى عام ١٩٧٩ رشحت اللجنة الموسيقية العليا بالقاهرة الموسيقار السنباطى لنيل جائزة الدولة التقديرية ، وجاء فى حيثيات هذا الترشيح : « لأنه أول من حافظ على التراث العربى التقليدى الأصيل ، مع إضافات جمالية كثيرة أخذ عنها الملحنون الذين جاءوا من بعده ، أمثال كمال الطويل ، والموجى وبليغ حمدى . . وأدخل كثيرًا من التجديدات على التصوير الموسيقى والانتقالات اللحنية التى لم تخرج برغم جمالها وتجددها - عن الإطار العربى الذى وضع أساسه عبده الحامولى فى أواخر القرن الماضى ، كما أنه أدخل كثيرًا من الآلات الغربية بدون أدنى تشويه لمسار اللحن الذى ابتكره وابتدعه بعبقريته العربية ، التى جعلت ألحانه تتردد فى جميع أرجاء العالم العربى فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار . وكان السنباطى قد حز فى نفسه عدم منحه جائزة الدولة التقديرية وكذلك تأخر منحه الدكتوراه الفخرية كما حصل عليها محمد عبد الوهاب ، وعندما تحدثت معه فى ذلك رد بانفعال مكتوم : « لا تهمنى الألقاب أو الأوسمة أو المنح أو غير ذلك ، بقدر ما يهمنى رضاء جمهورى عنى . . فهذا ما أتمناه دائمًا ، وهذا هو أرفع وسام حقيقى أعتز به » .

وكان السنباطى قد رُشح أيضًا فى عام ١٩٧٧ لنيل جائزة اليونسكو الدولية فى الموسيقى . . حيث كان ضمن خمسة مرشحين من مؤلفى الموسيقى القومية فى العالم لينال أحدهم جائزة اليونسكو لعام ١٩٧٧ . .

وقد عقدت لجنة الاختيار اجتماعها – والمكونة من دول الهند وسويسرا والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى – فى مدينة برافسلافا فى تشيكوسلوفاكيا . .

وكان الأربعة الآخرون أحدهم عازف الكلارينت الأمريكى جودمان ، وأستاذ العلوم الموسيقية بالبرازيل مستر ليتاردا ذفيدو ، والمؤلف الروسى فرينكو خوف ، ومدير التعليم الموسيقى فى غانا مستر ادواردايو . وكان التقرير الذى قُدِّم لِلجنة الاختيار الذى أعدته اللجنة الموسيقية العليا بمصر والتى يرأسها أحد شفيق أبو عوف . . ذكرت أغانى الأطلال ، وهلّت ليالى القمر ، وسهران لوحدى ، ومصر التى فى خاطرى .

وكانت هيئة اليونسكو قد اشترطت أن يكون المرشح موسيقيًّا استطاع بالموسيقى التأثير على منطقة لها تاريخ حضارى . . ولذلك فقد جاء بالتقرير أيضًا : أن الموسيقار رياض السنباطى هو الموسيقى الوحيد فى مصر الذى تنطبق عليه شروط الجائزة ، لأنه الوحيد الذى لم يتأثر بأية موسيقى أجنبية ، كمّا أن أعماله الموسيقية الكثيرة وروائعه مع أم كلثوم التى تزيد على ٢٠٠ أغنية ، كل ذلك يؤكد حق الحصول على الجائزة .

كما أعلن الموسيقار التونسى صالح المهدى رئيس مجمع الموسيقى العربية التابع لجامعة الدول العربية فى ذات العام أيضًا : « لقد كنت مقتنعًا بأن السنباطى شخصية عربية أثْرت الإنتاج العربى الموسيقى مع

حفاظها على أصالة هذا الفن فى جميع خصائصه ، وأننى لأعتقد أن هناك عربيًّا واحدًا لا يحس بموسيقاه أو ينكر دوره فى الموسيقى العربية أو يستطيع أن يحملنى على ترشيح الأستاذ محمد عبد الوهاب للقب الموسيقار العربى بالمجمع » .

وفى الأسبوع الذى نال فيه جائزة اليونسكو حصل أيضًا على الدكتوراه الفخرية من الرئيس السادات . ولذلك أقام معهد الموسيقى العربية حَفل تكريم له . . حضره ما يقرب من ألف شخص ، وحضر على رأس المدعوين عبد المنعم الصاوى وزير الثقافة والإعلام حين ذاك حيث قال فى كلمته بالحفل : « إن رياض السنباطى هو كل واحد فينا ، استطاع أن يبدع على مدى عمره الطويل والمديد بإذن الله ، أبدع اللحن الجميل النابض الذى انتزعه من أحاسيس الجماهير ، ومن ثَمَّ استطاع أن يساهم فى تكوين وجدان كل مصرى ، بل كل عربى ، بالحب والإخلاص والأمل والحياة والتطلع إلى المستقبل . . فهذا التكريم هو فى الواقع تكريم لكل جزء فى كل مصرّى استطاع أن يستفيد من ألحان رياض السنباطى ، فتكريمه حقًّا هو تكريم لجزئية مكونة بنّاءة ثم ختم الكلمة فقال . لقد استطاع هذا الفنان العبقرى أن يساهم فى تكوين حضارتنا وارتفاع بناء الإنسان ووجدانه فوق الدنايا والصغائر ليعفه عن كل ذلك . .

وقال محمد الموجى : « إن ألحان السنباطى . . قد درستها قبل أن

أكون موسيقارًا ، فتعلمت على يده المغنى والعزف وطريقة التلحين . فهو أستاذ بلا شك وله علامة واضحة فى الفن . وقد خدم الفن من جميع نواحيه ، ويكفينا فخرًا واعتزازًا أنه كان دعامة من دعامات وجود أم كلثوم الفنية . فوجوده معها ثبت أقدامها ، وأعطانا من خلالها أعظم الألحان ».

أما الملحن حلمى بكر فقال : « نحن فى حاجة إلى شهادة من رياض السنباطى ، فأنا محتاج إلى رأى منه . . فقد تربت آذاننا وإحساساتنا ووجداننا على شرقية وأصالة ألحانه . ونحن مهما فعلنا فنحن نحاول أن نصنع جملة موسيقية من بحر ألحان السنباطى » .

كما ألقى كل من الشاعرين عبدالوهاب محمد ومرسى جميل عزيز قصيدة يتحدث فيها عن السنباطى والموسيقى .

وساهم أيضًا فى إحيائها ياسمين الخيام ، وشهر زاد ، والمطربة المغربية عزيزة جلال ، وأحمد السنباطى .

وقبل وفاته بشهور . كان لنا لقاء بمنزله . . وكان غاضبًا حتى أنه فى نهاية حديثه معى : قال لى . . إننى سأعتزل الفن . . واعلن عن لسانى هذا . . وبالطبع لم أعلن ذلك ، لأننى كنت أعرف أنه لا يستطيع ذلك . . كما أن هذا الغضب كان احتجاجا عنيفًا على ما يبدو فى الجو الفنى عمومًا ، وتخوفه الشديد على ما يمكن أن تصاب به الموسيقى العربية الأصيلة .

فيندفع بحديثه الغاضب متسائلاً : ماذا يحدث فى الفن والمغنى ؟ إنّ هناك تيارات مخيفة تهب على عالم الموسيقى والغناء المصرى العربى الأصيل . . تحوم حول لعبة الفن العربى – أى مصر . . التى يؤمها كل عربى . فمصر قدمت للفن وللعالم العربى العقاد . وطه حسين . وشوقى ، وأم كلثوم . وعبدالوهاب ، وكامل الشناوى ، وإبراهيم ناجى ، وبيرم التونسى . وسيد درويش . ومحمود حسن إسماعيل . وأحمد فتحى الشاعر ، وزكريا أحمد ، والقصبجى . وغيرهم من عظماء القرى المصرية فكيف نسمح لصعاليك تلطّخ هذه الكعبة الفنية التى بناها هؤلاء وغيرهم . وتبناها الشعب العربى وأحبها والتف حولها . . فكيف نسمح لأمثال السح الدّح أمبو أن يفعلوا ذلك . . فهل هذا ضعف أو قصور أو عجز أو لامبالاة وعدم اكتراث أو يأس أو ماذا . ؟ وكيف نسمح لموسيقانا وفننا وذوق جمهورنا أن يهبط إلى هذا الحد الساقط ؟ ولماذا . . ولصالح من . . ؟ .

وهذه التيارات الغربية يقال عنها فن . . وإننى لآسف أن يُقال عنها ذلك فهى تهريج هابط . . تتنازع هذه التيارات فرق كثيرة . وتسمى نفسها بمسميات غربية ، بل إنها تعتبر هذه التسميات كشعار تطوير . . وأيضًا لها تسميات عصبية ، مثال ذلك فرقة تسمى نفسها « الفرقة المصرية » فهل كانت فرقة أم كلثوم غير مصرية . أو تركية ؟ أو ماذا ؟ وأخرى تسمى نفسها الكاتسى . وآخر عندما يتحدث يعتبر نفسه

مطربًا . ويسمى نفسه صاحب الأغنية المصرية الجديدة . فماذا يعنى ذلك العبقرى الصانع الساخر بادعاءاته هذه ؟ وهل كانت مصر تنتظر هذا العبقرى ليكون صانع الفن الجديد . . وهل ستنقلب الموسيقى العربية بهذه الفرقة إلى موسيقى غربية هزيلة باهتة تقلّد بعمى وعصبية وجنون - فهل أصبح الفن تقليدًا ونسينا الإبداع والخَلْق . . ألا إنه خطر داهم على الفن الأصيل لبلادنا . وبالتالى طمس لشخصيتنا وهويتنا أمام العالم وبين الأمم . . وبهذه الحال كيف تتميز موسيقانا عن موسيقى العالم الآخر . . ولماذا تحاول جماهير العالم أن تسمع تقليدنا الأعمى طالما أن لديها فنها الأصيل . ولماذا لا يكون فننا صادقًا نابعًا من وجداننا وأصالتنا ومقاماتنا ليكون عالميًّا . . هذا بديهى وإلا لماذا خصصت الأمم المتحدة جائزة دولية سنوية لكل ممتاز حافظ على تراث بلاده برغم تطويره لموسيقاها على أصول وقواعد خاصة . . ألا يحق لذلك الترغيب دائمًا فى تميزنا - بفننا عن الدول الأخرى . . ليكون لنا كياننا الواضح الظاهر ؟ !

إن نصف هذا الشعب من الأجيال الشابة . . ومن الواجب تربيتها وجدانيًّا على الفن العربى الأصيل . . لتعميق إحساسه بالانتماء الوطنى . ونحن فى حاجة إلى ذلك . .

وهل التمسك والاحتفاظ بالفن الوطنى جمود كما يتصور مخربو الفن ؟ إن هذه العواصف لن تؤدى بالفن العربى الأصيل . إلاّ أننى برغم ذلك خائف من انحدار الناس للهبوط والسقوط للفن الهابط . .

وهذه الفرق الموسيقية المنتشرة . . لماذا لا تعلن صراحة أنها تقلد الفرق الغربية . . فهل تخشى من السخرية ؟ وللإنصاف فهناك - وبالطبع - فرق أخرى محترمة وجديرة بالاحترام والتعاطف معها . . وأتمنى مساندة الدولة دائمًا لها . .

فهى صادقة ومعبرة بحق عن فننا الأصيل وتحتمل عبء تناقل تراثنا الموسيقى من جيل لآخر ، وخاصة لأجيالنا الحاضرة . . كفرقة الموسيقى العربية بقيادة الموسيقار عبد الحليم نويرة ، وفرقة أم كلثوم أيضًا . فهما يحافظان على التراث الموسيقى . . وآلاف الشباب تندفع لسماعهما وحضور حفلاتهما بحثًا عن أصله وجذوره وانتمائه وذاته ، فيجدها فى هذا الفن الصادق . . وهذا يؤكد ندائى بوجوب الاهتمام بطابع موسيقانا العربية الأصيل . . بل المفرح . . إن من يتهافت على الموسيقى العربية شباب مثقف وواع لموسيقاه الوطنية العظيمة . والتى انتزعت بتصفيق العالم فى أوربا وموسكو . فاحترمنا العالم عندما تقدمنا له بموسيقى تعبر عن هويتنا وكياننا الحضارى الفنى .

ولنعود إلى الفرقة إياها مرة أخرى . . فما تقدمه تطلق عليه « فرانكو - آراب » على أساس المزج أو الخلط بين موسيقى العرب والغرب ، فهذا هراء وخداع وزيف رخيص . ولابد من حذف الفرانكو - آراب من القاموس الفنى . فلا يوجد مثيل لهذا أو ذلك فى أى دولة أخرى . . فهل هناك باريس بارى إيجيبت ، أو فى إنجلترا انجلو

ايجبت . وفى أمريكا أمريك إيجبيت ؟ . إنه فرانكو قرف . . تجارة غير شريفة . . آلات غربية ممتزجة بكلمات هزيلة ونقول هذا تطوير ، فهل الفرانكو آراب تطوير ؟ بل أحيانًا يقال إنه توزيع جديد إلاّ إذا كان ملحنها هو موزعها . وبصراحة أكثر فإن موسيقانا أغنى من أى توزيع ، إلاّ فى الأناشيد والأغانى الوطنية . فهذا جائز فيها . أما الأغانى العاطفية فلا تحتاج إلى ذلك ، فهناك أغانٍ لى قد وزعت سينمائيًّا . . فلا حظت فى خلال توزيعها وعرضها أن « الميلودى » فقد توفاه الله . . عبارة عن خناقة قطط وخربشة . فى حين أن الغرب يوزع جملة لحنية قصيرة كما يحدث فى السيمفونية . . وهذا ما يجب أن يتعلمه الموزعون الدارسون بألاّ يفقدوا « الميلودى » جوهره فالتوزيع يكون للسيمفونيات والأوبريتات والأعمال الموسيقية الضخمة . أما الأغانى القصيرة فلا يكون لها ذلك .

وبرغم أن مصر مرت بحروب متعددة – كان من الطبيعى أن ينحدر فنها تبعًا لذلك كما انحدرت مرافقها . فإن أصالة وانتماء فنانيها الكبار لم ينحدروا بفنهم . بل ارتفعوا بالجماهير إلى مستوى المسئولية تجاه الأزمات التى مرت بها البلاد . . فلماذا لم تنحدر أم كلثوم بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ – وكذلك فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ وغيرهم من الفنانين ؟ . . بل إن كُلاًّ منهم أدى واجبه فى مجال الفن على أرفع مستوى . لينهضوا بجماهيرنا من الأزمة إلى النصر . . حتى بات للفن دور

كبير فى حياتنا ، وقد تبدى ذلك واضحًا ما بين هزيمة يونيو ونصر أكتوبر ١٩٧٣ ، ثم كانت مبادرة الرئيس السادات التاريخية للسلام . . كل ذلك كان أدعى أن يدفع الفنانين لأن يحاولوا الوصول إلى مستوى محترم يقترب من المؤشرات الإيجابية المذهلة على العالم كله ؟ ! .

وللأسف فالفن يبدو الآن تهريجًا هابطًا على أيدى صعُاليك والحكومة تقف مكتوفة الأيدى تتفرج عليهم . . لماذا ؟ وأين الثقافات الفنية من كل ما يحدث فى الفن . . وأين النقاد والإعلام ؟ فالإسفاف والابتذال والفوضى الفنية تحيط بالجماهير ، وتحدق بالخطر على أجيالنا الحاضرة والمقبلة . . فأين الحكومة ومسئوليتها فى حماية الوجدان الوطنى من التخريب وحماية الفن الأصيل . . وبالتالى الحفاظ على انتمائنا الوطنى . . نحن فى حاجة إلى ثورة فنية . . ترتقى بالفنون ليرتقى الشعب . . وهذا دور الحكومة . . فلا يمكن أن يكون الإسفاف والابتذال والهبوط بمستوى الفن موائماً أو متمشيًا مع دولة العلم والإيمان . . فأين العلم فى هذا والإيمان فى ذلك . . ؟ ! إن العلم هو التعمق فى الفن . كما أن الفن هو قمة العلم . . والإيمان هو الإيمان بحق جماهير شعبنا إلى فن راقٍ يعوضه عما فاته وما لحقه من خسائر ومعاناة طوال فى أزماته الماضية . . بل إن الفن الراقى هو الذى يُشعِره دائما بأنه شعب حر .

وأخيرًا فإننى أريد بهذا التوجيه الإصلاح لا الهدم . . وإننى أقول لمن أصارحهم بكل ما قلته إنه لصالح بلدى ووطنى . . فليس لى أى مطامع

أو أغراض شخصية من وراء هذا . . وعلى كل فإنني سأريحهم منى بأننى سأعتزل الموسيقى قريبًا ، حتى يستريح كل من يظن أنه ليس هناك غير رياض السنباطى فى مصر يقول مثل هذا الكلام » .

ولم أعلن - من جانبى - عن غضب واندفاع رياض السنباطى بحسن نيته فى اعتزاله للفن ، لعلمى أنه لا يستطيع أن يترك الفن ، لأن هذا الأخير لن يفارقه .

وعندما عبر قائلا : سأعتزل الموسيقى قريبًا . . ربما كانت تراود الرجل خواطر الموت . . لأنه قام بتلحين أغنية للمطربة وردة . . ثم اعتزل الفن فعلا . . ليس بإرادته وإنما بقضاء الله فى حينه ، فقدمات غاضبًا وحانقًا وخائفًا على الموسيقى العربية وما يمكن أن يصيبها من تلوُّث أجنبى . . مات وهو يتمنى انتماء الفنان لبلده . . ضمانًا للحفاظ على الفن العربى الأصيل . . وحتى تكون مصر دائمًا كعبة الفن العربى .

فبرغم حياته الهادئة . . وموته الهادئ أيضًا ، وقبل وفاته فإن السنباطى كان يشعر بالغُربة لموت أم كلثوم ، وفريد الأطرش ، وعبد الحليم حافظ فيعبر عن ذلك لى بقوله : كانوا عمالقة يتنفس بهم الجو الفنى نشعر بقيمة أى عمل تقدمه من خلال وجودهم كمنافسين . .

وكان أيضًا يشعر بالغربة لما يحدث فى الجو الفنى مما ذكره ، وصاح به